



معلوية

ابن أبي سفيان

عباس محمود العقاد

(طبعة منقحة ومراجعة)



اسم الكتاب: محاربة من أبي سفيان،
المؤلف: عباس محمود العقاد،
إشراق عمام: داليا محمد إبراهيم،
تاريخ النشر: الطبعة الخامسة - أغسطس 2006م
رقم الإصدار: 13067 / 2003
التقديم الدولي: ISBN 977-14-2342-8

الإدارة العامة للنشر: د. م. أحمد عباس - المهندس، الجيزة
ت: 8330287 - 83346576 فاكس: 83346576 ص.ب: 23 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 - 8330289 - 8330286 فاكس: 8330286
البريد الإلكتروني للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 8 شارع كامل صفي - ألقالة -
القاهرة - ص.ب: 84 ألقالة - ألقالة
ت: 5949827 - 5948895 - 5948895 فاكس: 5948895

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 80002276122
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: Sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (برشبي)
ت: 5462890 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام - مارف
ت: 2239775 (038)

دوائر الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



أسديا أحمد محمد إبراهيم سنة 2008

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب/CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

تقدير وتصدير

التاريخ عرض الإنسانية..

والعرض مناط ^(١) الحمد والذم في الإنسان..

وكذلك التاريخ بالقياس إلى الإنسانية في جملتها، لا يكون شيئاً إن لم يكن تقديراً لما هو صادق أو كاذب، أو ما هو صواب أو خطأ، وما هو حميد أو ذميم، من الحوادث والناس.

وقد نذكر الحوادث توسعاً في التعبير، فإن الحوادث لا تعيننا لذاتها إن لم يكن معناها تقريباً لأعمال وقياماً بأعمال، أو لم يكن معناها في صيغة أخرى تعريفاً بأقدار الناس مما عملوه واستطاعوه..

وكل شيء في الحياة الإنسانية حين إذا هان الخل في موازين الإنسانية، وإنها لأهون من ذلك إذا جاوز الأمر الخل إلى انعكاس الأحكام وانقلابها من النقيض إلى النقيض.

يهون كل شيء إذا هانت موازين الإنسانية؛ لأن موازين الإنسانية جماع ما عندها من الفكر والخلق والعقيدة والذوق والخيال.

ومن هوان الموازين الإنسانية أن يختل كل هذا، فلا يوثق بمحصول الإنسانية كافة في تاريخها القديم والحديث.

وأهون من ذلك ألا تختل وكفى.. بل تختل وتنعكس، فيوضع فيها الذم موضع الحمد، والكذب موضع الصدق، والخداع موضع الإخلاص والإيمان..

وقد هان عرض إنسان واحد يشتره المال أو الغرض في حياته، فماذا يقال في عرض الإنسانية الذي يشترى في الحياة وبعد الممات، ويزيف فيه الواقع للعيان ثم يلزمه الزيف بعد ذلك مدى الأجيال على صفحات التاريخ!

ذلك أفدح مصاب تصاب به الإنسانية: إنه مصاب في عرضها، في صميم أفكارها وأخلاقها وعقائدها وأذواقها وأحلامها.. في موازينها وحسب.. وما من شيء يعتز به الإنسان لا يدخل في هذه الموازين.

(١) مناط : الموضع الذي تعلق به الأشياء.

وأوجب واجب على الإنسان لضميره أن يحمي نفسه من شر هذا المصاب الفادح، وألا يتيح لأحد أن يختلس القاريخ في حاضره ومستقبله؛ فليس البلاء هنا بلاء منفعة تفوت أو مضرة تحدث، ولكنه بلاء الزيغ^(٢) في البصر والبصيرة، وعلينا نحن أن نصصح البصر إذا زاع؛ لأنه نقص وعيب وإن لم يحدث منه ضرر عاجل أو آجل. وكذلك نصصح زيغ البصيرة؛ لأنه نقص وعيب، أو لأنه تشويه في سواء الخلقة، وإن لم يعجل منه الضرر، ولم تذهب به المنفعة..

إن تاريخ الإنسانية من أوائلها إلى حواضرها لا يملك للعاملين جزاء غير حسن التقدير، وصدق القياس لما عملوه،

وكثير على أحد أن يبتذل هذا الجزاء؛ لأنه استطاع أن يحشو بعض البطون أو بعض الجيوب، فيملك - بهذه الرشوة الرخيصة - خير ما تؤتيه الإنسانية أحداً من أبنائها في الحياة وبعد الممات.

على أن الموازين الإنسانية لا تزيفها الرشوة المقصودة دون غيرها، ولا يختل بها غرض المنتفعين المتواطئين على تبديل الحقيقة، نهاباً مع الأجر العاجل والعطاء المعروف.

بل تصاب هذه الموازين من النهارين أو «الوصوليين» المطبوعين كما تصاب من النهارين المصنوعين أو المصطنعين.

فمن الناس من يحب أن تغلب المنفعة على الفضيلة أو على الحقيقة، وإن لم يكن هو صاحب المنفعة ولا حاضراً لها عند انتفاع المنتفع بها.

من الناس من يحب ذلك؛ لأنه يرجع إلى طبيعته فيشعر بحقارتها إذا غلبت مقاييس القضايل المنزهة، والحقائق الصريحة.

ومنهم من يحب الفاجحين بالمنافع؛ لأنه يتمنى أن ينجح على مثالهم، ولا يفكر النجاح إذا جاءه بواسطة كوسيلتهم.

ومنهم من يبلغ بهذه الخصلة حد التعصب والغيرة العمياء؛ لأنه يكره أن يبدأ الناس، أو تقاس الأعمال بمقاييس المثل العليا فيلوم نفسه، ولا يقدر على التماس المَعْدرة لها في نقيصتها، أو في طبيعتها التي لا فكاك منها.

(٢) الزيغ: زاع البصر كله وزاع الرجل: مال عن الاستقامة.

وليس أبغض إلى الإنسان من احتقاره لنفسه.
وليس أحب إليه من اعتذاره لها عن حقارتها.

وانك لو بحثت جهدك عن عصبية عمياء تغطى على بصر الإنسان وتملك عليه هواءه، لم تجد لها علة أقوى من هذه العلة التي ينقاد لها ولا يبتغي الشفاء منها. إنه يتعصب في كل شعور يدفع به النقص، ويمهد به العذر، وينفى عنه الإضرار إلى الإقرار بسبق السابقين له وارتفاع المرتفعين عليه. وإنه ليعترف بالجهل إذا استطاع أن يدعى لنفسه تعلقة يسمو بها على أهل المعرفة...

وانه ليعترف بالعجز إذا استطاع أن يفتخر بالقادرين إلى «مستواه» بخديعة من خدائع النفوس، وإنه ليعترف بالوذيلة إذا استطاع أن يلوث القضية التي يمتاز بها عليه ذرور الفضائل البينة.

وانه ليتشبث بهذه التعللات كما يتشبث الغريق بأوهام النجاة؛ لأنه بغير هذه التعللات غريق في شعور ثقيل على جميع النفوس، وهو الشعور بالهوان... لهذا يتعصب النهازون المطبوعون على أصحاب المثل العليا؛ لأنهم بين اثنين: إما أن يدينوا أنفسهم بالمثل العليا، ويعملوا في السر والعلانية عمل أصحابها، وذلك مطلب عسير يصطدمون بعقباته كل يوم وكل ساعة. وإما أن ينكروا تلك المثل العليا على أصحابها، ويتعصبوا لمن ينجح بأساليبهم أو يتمنوا النجاح بأساليبهم، وذلك مطلب لا يكلفهم تغيير الطباع، وإن لم يبلغوه بفعالهم كما بلغه ذرور القدرة أمامهم من الفاجحين الفعالين..

وقد عرفنا من هؤلاء أناساً في التاريخ ما عرفناهم في الحياة الحاضرة. عرفناهم فعرفنا عجباً من العصبية العمياء التي تكيل بالكيلين وتزن بالميزانين في الحادث الواحد والحقيقة الواحدة. إذا وقفوا بين خصمين أحدهما من النفعيين، والآخر من المثاليين - رأيت العجب في المقياس الذي يلتصقون به المعانير لهذا، وينكرونها على الآخر في اللحظة الواحدة.

إذا استسلم أحدهما مع الهوى لمحاباة ولده أو ذوى قريبه لم يعذله أو لم يعنفوه في عذله، بل اتخذوا من ذلك شريعة يؤتم بها، وتجري الوتيرة^(٢) عليها... وماذا في هذا الصنيع عندهم مما يستغرب؟ كان على الرجل أن يتنسى ابته ليفضل عليه الغريب عنه؟ أليس هذا الصنيع صنيع كل إنسان في هذا المكان؟... يعذرون هنا بل لا يلومون، ولا ينفرون ممن يلومونه إن جاملوا «الظواهر» قلاموه.

أما خصمه المثالي فمعدود عليه أن يحابي نفسه فضلاً عن محاباة ولده، ومعدود عليه أن يهبط من السماوات العلا لحظة واحدة ليشبه سائر الناس في نقيصة من النقائص أو أمل من الآمال.

ولا حاجة إلى إمعان في البحث للكشف عن عبيثة الطبيعة التهازية في هذه التفرقة بين الحكم على النفعيين والحكم على المثاليين.

إن الطبيعة التهازية لا تريد هنا أن تحكم وأن تنصف بين خصمين.

إنها تريد أن تعذر نفسها لتقول: إن ذلك المثالي ناقص، وإن هذا النفعي يجري على العرف الشائع بين جميع الناس. ولهذا يتناول التهاز الميزان وهو يعتمد أن يزيد في ناحية من السيئات ويحط من الحسنات، ويعتمد في الناحية الأخرى أن يقلب الكفة فيزيد على الحسنات ويحط من السيئات.

ويكفي أن ينسب إلى العظيم المثالي عمل من الأعمال التي لا يقدر عليها التهاز ولا يسعى إليها ليشعر التهاز بالاختلاف والجفوة^(٣) بينه وبين ذلك العظيم المثالي، ثم يشعر بنوع من القرابة والألفة بينه وبين خصمه، فيميل إلى سماع الأحذوثة الحسنة عن هذا ولا يميل إلى سماعها عن ذلك، ويضطره إلى ذلك وقوفه بين طريقين: أحدهما غريب بصغره في نظر نفسه، والآخر مألوف بطرقه كل يوم أو يحب أن يطرقه غير ملوم بينه وبين دخليته.

نعم.. يكفي أن ينسب إلى العظيم المثالي عمل من الأعمال التي لا يقدر عليها التهاز ولا يسعى إليها؛ لتنفرج الهوة بينهما فلا يستريح التهاز إلى العظيم المثالي كما يستريح إلى النفعيين التاجحين.

(٢) الوتيرة: الطريقة المطروقة بنوم عليها الشيء.

(٣) الجفوة والجفاء: البعد، وترك المصلة، والغفل في العشرة، والخرق في المعاملة.

وتقول: «عمل من الأعمال لا يقدر عليه ولا يسعى إليه؛ لأن هناك أناساً لا يقدرين على العمل المثالي ولكنهم يسعون إليه، أو يتمنونهُ أو يحبون أن يؤمنوا بسعيهم إليه وتمنيهِ وصبرهم على مشقة هذا السعي وهذه الأمنية..

وليس هؤلاء بالنفعيين المطبوعين..

هؤلاء مثاليون تعوزهم القدرة ولا يعوزهم الأمل في بلوغها ولا الغبطة بوجودها، وميولهم إلى جانب العظماء المثاليين أقرب وأغلب من ميولهم إلى جانب المنفعة الناجحة بالحيلة أو بكل وسيلة، والأمثلة من هؤلاء وهؤلاء كثيرة بين سواد الناس الذين لا يدخلون إلى ساحة التاريخ إلا شهداء أو مستمعين..

فلو كان محنة التاريخ كله من النهاز المأجور لما خفيت حقائقه هذا الخفاء، ولا طال العهد على الزيف أو الغرض المموه بالأباطيل..

وإنما المحنة الشائعة من أولئك النهازين المتطوعين الذين يقبلون العملة الزائفة ويرفضون ما عداها، ويجاهدون من يكشف هذا الزيف ويقوم به قيمته الصحيحة، ثم تكثر العملة الزائفة في الأيدي حتى ليوشك أن تطرد العملة الصحيحة وتحيطها بالريبة والحذر، ولا ينفع المحك الناقد في هذه الحالة؛ لأن المحك الناقد لم يسلم قبلها من التزييف..

وفي التاريخ الإسلامي مراحل كثيرة تصحح لنا موازين التاريخ التي يرتبط بها عرض الإنسانية، وربما كانت هذه المراحل أجدى على المؤرخ من غيرها في تواريخ الأمم؛ لأنها حاضرة الأخبار والروايات، حاضرة الأسباب والبواعث، ولا يخفى من شأنها غير النيات والمزاعم. وليس بالمؤرخ من تضلله النيات والمزاعم حين تشخص أمامه الأخبار والروايات ولا تتوارى خلفها الأسباب والبواعث بحجاب كثيف..

وأسبق هذه المراحل وأضخمها مرحلة النزاع بين علي ومعاوية بعد مقتل عثمان..

فقد اختلفت فيها الأحكام على الرجال والمتأقبات والأعمال، ولم تنقطع عنا أخبارهم وحوادثهم التي اتفقت عليها جميع الأقوال..

وإذا لم يرجع من أخبار هذه الفترة إلا الخبر الراجح عن لعن «علي» على

المنابر بأمر معاوية لكان فيه الكفاية لإثبات ما عداه مما يتم به الترجيح بين كفتي الميزان.

فإن الذي يعلن لعن خصمه على منابر المساجد لا يكف عن كسب الحمد لنفسه في كل مكان وبكل لسان، ولو لم يرد من أخبار تلك الفترة أن معاوية كان يمدق الأموال على الأعوان ومن يرجى منهم العون لكان لعن خصمه على المنابر كافياً للإبانة عما صنعه لكسب الثناء عليه وإسكات القادحين فيه، ولكن أخبار الأموال المبدولة لتغيير الحقائق في هذه الفترة تفيض بها كتب المادحين والقادحين ومن لا يمدحون ولا يقدحون، ولم يعلم أحد مبلغها من الوفرة والجسامة، ولكنها معلومة بالتقدير وإن لم تعلم بالإحصاء وأرقام الحساب؛ لأنها استنفدت خزانة الدولة، وجرت إلى مضاعفة المكوس^(٥) والضرائب ومخالفة العهد لأهل الامة وحسبان الزكاة من حصة الخزنة التي يستولى عليها ولاية الأمور.

ويبقى عمل النهازين المطبوعين بعد عمل النهازين المأجورين، فإنهم قد تطوعوا في ذلك العصر، وفي العصور التالية؛ لترجيح كفة النجاح المنتفع على كفة المثالية العالية، ولم يخف الأمر على أبناء ذلك العصر كما نشرحه الآن بأساليب علم النفس في الزمن الأخير فإن الأقدمين لم تفتهم «النفس» بجوهرها وإن فاتتهم مصطلحات النفسانيين من أبناء القرن العشرين، وقد نفذوا إلى مواطنهم بالنظرة الثاقبة؛ لأنهم أصحاب نفوس تعلم ما تنطوى عليه النفوس.

جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي عن الإمام ابن حنبل أنه سأل أباه عن علي ومعاوية، فقال: «اعلم أن علياً كان كثير الأعداء، ففتش له أعداؤه عيباً فلم يجدوا، فجاءوا إلى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كيداً^(٦) منهم له».

وهذه بخيلة من دخائل النفس الصغيرة معهودة متكررة في كل جيل وفي كل خصومة، فكثير من الثناء لا يصدر عن حب للمثلى عليه كما يصدر عن حقد على غيره، وكثير من هذا الحقد تبعثه القضايل ولا تبعثه العيوب..

إن تاريخ معاوية بن أبي سفيان لا يحتاج إلى مزيد من تفصيل، وإنما يحتاج تاريخه وتواريخ التابهين جميعاً إلى تصحيح الموازين، وبيان المداخل التي

(٥) المكوس: جمع مكس وهو درهم تؤخذ من يائعي الملح في الأسواق.

(٦) كيداً: مصدر كيدته أي مكر به.

تؤتى من قبلها أحكام الناس على الحوادث والرجال، فتصاب بالخلل أو تنقلب رأساً على عقب. ويصاب بالخلل معها تفكير المفكر، ونظرة الناظر، وإدراك المدرك لما يحيط به من حوادث زمته وحوادث سائر الأزمنة.

وتحن نفهم تاريخ معاوية، ونفهم معه تواريخ الكثيرين من بناء الدول إذا صححنا الموازين، وعرفنا ما يعرض لها من الانحراف عن قصد أو عن شعور غير مقصود.

ولكننا لا نعرف تاريخ معاوية ولا تواريخ غيره إنا أخذنا بظواهر الأقوال، ولم نقب وراءها عن بواطن الأهواء والبواعث الخفية، ولا بد منها في هذه المرحلة بذاتها: مرحلة الدولة الأموية الأولى على التخصيص.

لقد كان قيام الدولة الأموية بعد عصر الخلافة حادثاً جليلاً بالغ الخطر في تاريخ الإسلام، وتاريخ العالم.

وما كان أحد ليطمع في بقاء عصر الخلافة على سنة الصديق والفاروق أبداً الأبديين ودمر الداهرين! لأن أطراد النسق من ولادة الأمر على هذه الطبقة العليا من الخلق والتقوى أمر تنوء به طاقة بني الإنسان.

فما كان دوام الخلافة الصديقية أو الفاروقية بمستطاع على طول الزمن، وما كان قيام الملك بعد الخلافة بالأمر الذي يؤجل إلى زمن بعيد.

ولكن الملك بعد الخلافة كان على مفترق طريقين: كان في الوسع أن يسير على مشابه الخلافة ملكاً باراً نقياً مصوناً من بذخ الهرقلية والكسروية وسائر ضروب الملك في عصوره الخالية.

وكان في الوسع أن يسير على مشابه الملك في العصور الخالية بذخاً ومتاعاً وزينة وخيلاء كخيلاء العواهل من القياصرة والشواهي.

كان في الوسع أن يبتدئ الملك في تاريخ العالم على النهج الصديقي أو الفاروقي وإن لم يبلغ هذا المدى من النزاهة والصلاح، وكان هذا النهج خليفاً أن يظل إماماً للرعية يتوارثونه ويقتدون به ويحكيهم نكسة الأخلاق والآداب قرونًا وراء قرون من بقايا الوثنية وأوشاب^(٧) المادية، وما شابهها من آداب تدور على النفع العاجل وتقليل المعاذير منه في أخطار الأمور.

(٧) أوشاب: عيوب.

كان في الوسع هذا، وكان في الوسع ذلك،

ونشأة الدولة الأموية على مفترق هذين الطريقين هي الحادث الجلل في صدر الإسلام، وهي الحادث الجلل الذي يقرر تبعثها في التاريخ الإسلامي بل في التاريخ العالمي كله.

ورأس الدولة الأموية، معاوية بن أبي سفيان، هو صاحب هذه التبعة التي يجب أن تنقرر بأمانتها العظمى في ميزان لا تلعب به المنافع المقصودة أو المنافع التي هي أخطر منها على الحقيقة، وهي منافع الطمأنينة المستسلمة لأيسر المعاذير، يشق عليها الصعود إلى المثل الأعلى ولو بالأمل وحسن المظنة، ويطلب لها أن تسترسل على هيئة^(٨) مع مآلوفاتها في كل يوم.

والصفحات التالية تتناول النظر في سيرة معاوية من هذه الوجهة، فليست هي سرداً لتاريخه ولا سجلاً لأعماله ولا معرضاً لحوادث عصره، ولكنها تقدير له وإنصاف للحقيقة التاريخية وللحقيقة الإنسانية كما يراها المجتهد في طلبها وتمحيصها، وتكاد نقول كما يراها من لا يجتهد في البعد عنها وإخفاء معالمها والتوفيق بينها وبين دخيلة هواه من حيث يريد أو لا يريد، وبعض المؤرخين بعد العصر الأموي إلى زماننا هذا يفعلون ذلك حين ينظرون إلى هذه الفترة فلا تخطئهم من أسلوبهم ولا من حرصهم على مطاوعة أهوائهم، كأنهم صنائع الدولة في إبان سلطانها وبين عطاياها المغدقة، وتكاياتها المرهوبة، ورجالها الذين تنعقد بينهم وبين معاصريهم أواصر المودة والنسب وأواصر المشايعة في المطالب والمعاذير.

ولولا أننا نأبى أن نضرب الأمثلة بالأسماء للذكرنا من هؤلاء المؤرخين المعاصرين من يتكلم في هذا التاريخ كلاماً ينضح بالقرص ويشف عن المحاباة بغير حجة، فمنهم من ينكر الخلاف بين هاشم وأمية في الجاهلية، ومنهم من يحسب من همة معاوية أنه تصدى للخلافة مع علي، ويحسب من المآخذ على غيره أنهم تصدوا للخلافة مع يزيد، ومنهم من يشيد بفضل أبي سفيان على العرب؛ لأنه كان تاجراً يعرف الكتابة والحساب ويطلعهما من يستخدمهم في تجارته، ومنهم من يلوم أهل المدينة لأنهم تكبروا في أرواحهم وأعراضهم على

(٨) هيئة - يكثر الهاء السكونية والوقار والرفق.

أيدي المصلطين عليهم من جند يزيد، ولا تكاد تسمع منه لومًا لأولئك المصلطين، بل تكاد تسمعه يعذرهم ولا يدرى ما يصنعون غير ما صنعوه.

ولو أنك ذكرت أسماء هؤلاء المؤرخين المعاصرين لكان تمام البين عن منهجهم أن تشفعه^(٩) بأطراف من تراجمهم وألوان من مسالكهم في طلب العنفة واللياد بالقادريين عليها، وألوان من معاديرهم التي يرتضونها لأنفسهم ويوجهون على الناس أن يربصوها لهم أو يلتمسوها لهم، وإن لم يعلوها.

* * *

ولكننا ندع هذا التعتيل لأنما في غي عنه بما ثبت من الأمثلة المحفوظة عن رمانها، ونتخذ الشواهد من حوادثه وأقوال رجاله، ونتحرى في ذلك كله أن نصون التاريخ - نصرن ذمة الإنسانية - أن يملكها من يملك الجاه والسلطان في زمن من الأزمان

(٩) تشفعه: شفع العدد صوره شعاعاً في زوجه، وأنبهه بذلك.

بين القدرة والعظمة

زبدة الصفحات التالية أن رأس الدولة الأموية كان رجلاً قديرًا، ولكنه لم يكن بالرجل العظيم

والفرق بين القدرة والعظمة يوضحه الاصطلاح ولا توضحه المعجمات اللغوية هذا التوصيح الذي نعنيه فقد يقال عن العظيم إنه قدير ويقال عن القدير إنه عظيم. ولا يخطئ لقائل من الوجهة اللغوية في هذا الترادف المقنون ما لم يقيد الاصطلاح.

إما الاصطلاح الذي نعنيه وينظر فيه إلى أحوال الطباع أن القدرة غير العظمة في أشياء.

فربما وصف الرجل بالقدرة لأنه مقتدر على بسوغ مقاصده واحتجانه^(١) منافع والإضرار بغيره، ولكنه إذا وصف بالعظمة فإنه يوصف بها لفضل يقاس بالمقاييس الإنسانية العامة، وخبر تغلب فيه بيه العن للآخرين على نية العمل لمعامل وذويه

ولعلنا نقرب من توضيح الاصطلاح إذا قلنا التفرقة من القدرة والعظمة إلى التقدير والتعظيم

فبحسب تقدير الإنسان بمقداره عظيمًا كان أو غير عظيم، بل بقدر الأشياء بمقدورها وبوالم يكر لها عمل ولم تكرر من وراء العمل بية، ولكننا إذا عظمت الإنسان فإنه نوجب له التعظيم عليها لأنه يعينها ويستحق إكبارها ويرتفع إلى المكانة التي تلحظها الإنسانية بأسرها ويعود عليها في منافعها وخيراتها فكل عظيم قدير..

ولكن ليس كل قدير بالعظيم.

والعظمة قدرة وريادة.

أم القدرة فليس من اللازم أن تكون عظمة، فضلاً عن أن تكون عظمة وريادة

ومحاوية قدير ولا ريب..

(١) احتجنا السوء حذبه بامحج وهو العيب المعطية الرأس. واحتجنا المال بحتواه وخسه إلى

أما أنه عظيم فذلك الذي نعرض له في الصفحات التالية لسبين فيها الفارق بين القدرة والعظمة، في ترجمة رجل من أرفع الرجال النابهين لتوضح هذا الفارق بميزان الحوادث وميزان الأخلاق.

ومن سرف القول أن يقال إن معاوية لم يكن يعمل بباعث من العيرة الدينية أو بباعث من أحكام المروءة والعرف، المتبع في الأخلاق وليس في وسعه أن يتجرد من هذه البواعث لو أراد، وليس في وسع رجل أسلم على يد النبي عليه السلام وصاحبه وعمل على أيدي الجلة من صحابه أن يغفل عن غيرة دينه وأحكام مراسمه وواجبات المروءة في عرف ربه

إلا أننا، مع العلم بغيرته الدينية في شعوره ومعاليه، نستطيع أن نعلل جميع أعماله بعلّة المصلحة «الدانية»، أو مصلحة الأسرة والعشير، ونستطيع أن نعمم القول بغير استثناء على كل مسعى من مساعيه وكل حيلة من حيله وكل سائرة من مآثره فنقول إن المصلحة الذاتية أو مصلحة الأسرة والعشيرة كامية لتعليلها والقيام بها، وإنه لم يعارض المصلحة الذاتية بإرادته في خير واحد، وعارض المصلحة العامة في أحيان، كان رجلاً قديراً ولكنه لم يكن بالرجل العظيم.

ومهمة المؤرخ في سيرته أن يقدر قدرته وأن يعرف ما اقتدر عليه يسعيه وتديره وما اقتدر عليه بمساعدة الزمن ومبالاة الحوادث والمصادفات وهذه المهمة تتقصبنا «أولاً» أن نحمل القبول في جميع التمهيدات التي مكنته من الاقتدار على مقاصده، ومنها ما كان سابقاً للإسلام وسابقاً لمولده، ومنها ما تم قبل ملكه وما تم في أثناء ملكه إلى ما بعد موته.

وتتقاصبا هذه المهمة «ثانياً» أن نرى المواهب العقلية والخيالية التي اشتهر بها وأسند إليها ما أسند من أسباب نجاحه

فنبداً الكلام في الفصول التالية بتمهيدات التاريخية من قبل الإسلام إلى قيام الدولة الأموية، ثم نقلوها لتحليل الأخلاق والموهب التي تعد من وسائل نجاحه وبلاحظ في ذلك كله أن «نقدر القدرة» التي نُسبت لهذا الرجل القدير من وراء المدائح والأهالي ووراء الدعائية له والدعائية عليه

وسحب أنت رغبنا بهذه الأمانة إذا انتهينا من هذه الصفحات إلى الوزن الصحيح الذي يورث به رأس الدولة الأموية ويوزن به غيره من أعلام التاريخ

تمهيدات الحوادث

بدأ التمهيد لجبى أمية في الشام قبل الإسلام مجيلين متعاقبين، وكانت الشام قبل ذلك سوقاً عامة لقريش، تأتيا قوافل الصيف بتجارة الحجاز في حراسة الرؤساء من بيت مناف على الأكثر، وأظهرهم في الحيل الذي سبق الدعوة النبوية هاشم بن عبد مناف.

ولم يكن رجس هاشم بالرئاسة والثروة حائلاً بين الأمويين وغشيان الشام للتجارة والإقامة بين المدن والبادية فيها، بل كان هذا الرجس - فيما تفقت عليه الأخبار - سبباً لهجرة أمية عن مكة وإقامته بالشام عشر سنين؛ إذ تنافر هاشم وأمية وتنافساً على الرئاسة واحتكما إلى الكهان كعادتهم على أن يكون للحالب إجلال المملوك عن مكة عشر سنين، ففضى المحكمون لهاشم على أمية، وخرج أمية إلى الشام فاخترها مقاماً له خلال هذه السنين، وربما كان ضيقه بالزعامة المعقودة لهاشم في مكة من دواعي الهجرة قبل الحكم عليه في قضية المنافسة المشهورة، وهي قضية قد تصح بتفصيلاتها أو لا تصح إلا بجزء منها، ولكن هجرة أمية إلى الشام لم تكن مما اختلف عليه المختلون.

ولما مات هاشم شغل أبناؤه بالرئاسة الديبية إلى جوار الكعبة، وآل اللواء إلى بعي أمية، وهو عمل يوط بصاحبه حراسة القوافل من الشام واليهما إن لم يكن من حاجة قريش في الجيل السابق للإسلام عقد اللواء لحيش يغزو القبائل أو يدفع غزوتها لمكة وإنما كان العمل الأكبر لصاحب اللواء حراسة طريق التجارة بين مكة والشام على الأكثر، وبين مكة واليمن في قليل من الأوقات. وكان عملاً يحتاج في الواقع إلى جيش صغير وقائد يحمل لواءه، لأن القافلة التي تخرج للتجارة تجمع أمراً قريش وتسير بها العنات من الإبل، ولا يستظم سيرها بغير قيادة تتولى تنظيم المخافر وتوزيع لمونة واستعرف إلى رؤساء القبائل التي تقيم على الطريق أو تقيم على مقربة من أسواق الشام في البادية، فهي عمل متص لا ينتهي بانتهاج رحلة القافلة ولا تزال له روابطه وعلاقاته بين صاحب اللواء وأعوانه وبين ذوي الشأن في مراحل الطريق وفي منازل المقام.

ومن المشهور المتواتر أن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان معروف المكاة

بين رؤساء الدولة البيزنطية على حدود بلاد العرب، كما كان معروف لمكة بين
الوحد من قبائل البادية، وخطعت عليه الدولة البيزنطية لقباً من ألقاب الرئاسة
ليسفر بينها وبين قومه ويعينها في خلافتها مع العرب الغساسنة بالشام وكانوا
يحنحون أحياناً إلى جانب فارس في حربها لبيزنطة، ويرى البيزنطيون أنهم لا
يستعززون عن قوة من العرب لمقاومة هذا الخطر من البادية، ولو يتهديد الغساسنة
وتشكيكهم فيمن يحاورهم أو يعاملهم من العرب احجاريين

وقد كان بدو أمية على شيء محالفة بينهم وبين بني كلب أقوى القبائل ببادية
الشام وأشرف خطراً على الغساسنة، ومنهم من ينصر مناقسه للغساسنة في خطوة
الدوبة مع ارتقايتهم للفرص بين الدولتين وبين القبائل العربية، وقد عرفنا بعد
الإسلام ثلاثة من كبار الأمويين أصهروا إلى بني كلب في عصر واحد، وهم سعيد بن
العاص وإلى الكوفة، والخليلة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان، ولا تكون
هذه المعاصرات أول العهد بالصلة بين الفريقين، فهي بقية لم تقدمها من الصلات
ومن المشهور أيضاً أن أما سفيان كان على صلة بولاة الأمر من البيزنطيين،
وكان يلقي هرقس وأمرأه بيته في رحلاته، ويعول عليه هؤلاء فيما يعينهم من
أحوال العرب وأخبارهم، فقليل إنهم سألوه عن النبي عليه السلام عند مبعثه، وإن
السائل جعل يستدبته عن صفاته عليه السلام على مسمع من قوم حجازيين في
المجلس، ويحذره أن يكذب فيكديه من سمع كلامه من قومه قال أبو سفيان
وعلمت أنهم لا يكذبوني إن كذبت، ولكنني صدقت الصفة ضف بمروءتي أن أقول
ما يعلم السامعون أنه زباً مكذوب

قال المفريزي: «إنه ما فتحت بالشام كورة إلا وجد فيها رخص من بني سعيد
ابن العاص ميتاً».

وكن النبي صلوات الله عليه يتحرى في اجتدار الولاة أن يمدبهم لولاية حيث
يتيسر لهم العمل بموافقة الرعية، فاختار عمرو بن سعيد بن العاص والياً لتيما
وخبيبر وتبوك وفدك، وكلهم على طريق التجارة الأموية، وسار أبو بكر على هذه
المناسبة فاختار يزيد بن أبي سفيان قائداً لجيش من حيوث الحملة على الشام
وولاه بعض أقاليمها بقبه حياته، وكانت وفاته في عهد الفاروق فجري على هذه
المناسبة وعهد بالولاية إلى أخيه معاوية حيث بقي إلى ما بعد خلافة الفاروق، وكن
يعمل برئاسة أخيه قبل موته ويحمل اللواء بين يديه.

ومن بني أمية من كاد يصرح بالطمع في الملك بعد رسول الله عسى عهد الصديق، إذ كان من أبناء عمرو بن سعيد بن العاص خلف على الولاية التي ولاها إياه النبي صلوات الله عليه، فلما بويع أبو بكر بالخلافة أنفروا أن يعملوا له وقالوا «نحن أبناء بني أحيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله ﷺ أبداً».

ولا يقول هذا القول إلا من يطب الرئاسة لنفسه ولا يفر الرئاسة لغير ذي بوة أو رسالته بهيه، ويمنظر إلى الخلافة مضرة دينية لا تفاصيل فيها بصفة من صفات الدين وسابقه من سوابق الهداية

وكان الفاروق قد ولي معاوية ولاية من الشام فقسم إليه عثمان سائر الشام وألحق به أقاليمها من الجزيرة إلى شواطئ بحر الروم فلما قتل عثمان كان قد مضى لمعاوية في ولاية الشام عشرون سنة، لم يبق فيها من يبارعه أو يعصيه، ولم يكن من عمالها وحكامها المرءوسين له أحد من غير صناعته وأشيعه والمستقرين في كنفه، لأنه حرص في ولايته على ستيفاء من يراليه وإقصاء من يشغب عليه، وجعل همه الأكبر أن يخرج أهل الفتنة من الشام ولا يبالي بعد ذلك ما يصور في سائر الولايات، فتعرفوا كلهم بين الكوفة ومصر والحجاز

كان عثمان يسمع الأقاويل عن ولاية الشام ويثقل الشكايات ممن يطلبون منه عزل ولاته وأولهم معاوية، فيعذر لهؤلاء الشاكين بعذره المعهود ويقول لهم إنه إنما ولي على الشام من ارتضاه قبله عمر بن الخطاب، وقال ذلك مرة لعلي بن أبي طالب، فقال له علي نعم، ولكن معاوية كان أطوع لعمر من علامه يوماً، وصدق الإمام فيما قال

فقد كن معاوية يصطاع الأبهة في إمارته ويقتصد فيها جهده بعيداً عن أعين الفاروق فإذا لامه الفاروق على شيء منه ربه يعينه اعتدله بعقمة بين أعداء ألفوا الأبهة واتخذوها آية من آيات القوة والجمعة، وكان يؤدي حساب ولايته لعمر كلما سأله الحساب ويقنع منها بررقه من بيت المال ألف دينار في العام، وتقال "بما يجمعه من تجارة هله أو مما وراء الحساب

هما بويع عثمان بالخلافة تركه في مكانه وحسم إليه سائر الشام كما تقدم، وطلب منه معاوية أن يرخص له في رزع الأرض التي تركها أصحابها وهاجروا إلى بلاد الروم فأحياه إلى طلبه، ووضع معاوية يديه على موارد من المال تقوم

(٩) أنمال، جمع نقل يعتنق، الخيمة والهيئة

بأعباء دولة، ولم يكن يخشى عليها من الحساب ما كان يخشاه على عهد عمر بن الخطاب، وأوشكت الشام أن تقوم وحدها مملكة مستقلة يتولاها ملك مستقل فيما عدا الأوامر التي كانت تأتيه من المدينة بتحصين الثغور وإمداد الغزاة وتسيير الجيوش إلى الأطراف بقيادة الأعلام من الصحابة

وقتل عثمان فانقسمت الرقعة الإسلامية قسمين، أحدهما لا خلاف فيه وهو الشام - حصّة معاوية - والآخر لا وفاق فيه وهو حصّة علي من الحجاز والعراق، وقد تدخل مصر فيها حينئذٍ ومخرج منها أكثر الأحياء وتولى معاوية بلاداً لا يبارعه فيها منارع، ولا يود أحد فيها أن تخرج من يديه وتثول إلى غيره،

وتولى عسى بلاداً كلها مزاج من أمر الخلافة إلى أصغر الأمور، فسرعه الخلافة طلحة والزبير، وأحاط به رهط من المتزمتين المتفقهين يسألونه عن الكبيرة والصغيرة ويجتهدون اجتهدهم في كل شأن من شئون السياسة

وهذا إلى العارق بين وعة المال من جانب ودرته من الجانب الآخر وهذا إلى عارق آخر أكبر وأعسر وأعصل عسى الحل والمحاولة، وهو لفارق بين الملك والخلافة، وقد امتزجت طريفتاهما منذ سنين، وتم افتراقهما بعد أيام عثمان فكانت أعباء الخلافة كلها على علي، وكانت أحوال الملك كلها مع معاوية عوانية له محيططة به فيما يريد وفدما لا يريد

كان الناس مع علي ينظرون إلى سدة النبي وسنة الصديق، والعاروق من بعده، وكان الناس مع معاوية ينظرون إلى هرف وكسرى، ولا يسومونه^(٢) أن يحكم كما حكم النبي أو كما حكم من بعده الخليفتان الأولان.

وكان لا بد لعلى كما قلب هي عبقرية الإمام - من منة أو خلافة - وب يكون ملكاً بأدوات خليفة، ولا خسعة بأدوات ملك، ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب وحلا يريد لعصر وأعصر يريد، لأنه عصر ملك نهيات به دواعيه الاجتماعية وتها إلى الرجل بخلائقه وبياته ومعاونة أمثاله، ولم يكن معاوية بهذا في الخلافة على عهد أبي بكر أو عمر أو عثمان، ولكن الخلافة كانت راهدة به فلما جاء عصر الملك طلب الملك وانملك يطلبه وهذه حالة لم تطرأ دفعة واحدة في أيام المراح بين علي ومعاوية، بل ظهرت بوادرها في أيام الصديق وازدادت ظهوراً في أيام العاروق، وحدث كما أجبعت

(٢) يسومونه، صام ثلاثاً الأمر كله إليه وأمره

ذلك في كتاب ذي الثورين أن الصديق « اتخذ الحبطة للعتنة واستبقى عنده كبار الصحابة ليجمع بين معيبتهم له في الرأي وبين تحذيبهم الفتنة ومأرقى الولاية، وكان يتدبر من ترخص^(٣) بعض اصحابه في أمور تؤذن بما بعدها، فقل لعبدالرحمن بن عوف وهو على سرير الموت: «ما لقيت منكم أيها المهاجرون - رأيتكم الدنيا قد أنبلت ولما تقبل، وفي مقبله حتى تتخذوا ستور الحرير وبضائد الديباج وحتى يألم أحدكم بالاصطجاع على اصصوف الأذري^(٤) » كما يألم أحدكم إذا نام على هسك السعدان^(٥)».

واقصى عهد الصديق ثم اقصى عهد الفاروق ثم المجتمع الإسلامي مجتمعين أحدهما ماض ولما يمض بأجمعه، والآخر مقبل ولما يقبل بأجمعه، وأوشك عمر على قوته أن يحار في تدبيره، وقال الشعبي إنه قضى وأرشكت قريش أن تملأ لشدة ووقوفه لها، بحيث وقف حائلاً بينها وبين مرعاتها ومطامعها في دنياها الجديدة»

وتتابعت السنين على أيام عثمان وهذان لمجتمعان يلجان في الافتراق حتى افترقا غاية افتراقهما في النزاع بين علي ومعاوية، فكان علي يكبح تياراً جارفاً لا حيلة له في السير معه ولا في دفعه، وكان معاوية يركب ذلك التيار رخاء سخاء بغير مدافعة وغير حمرة، ويركبه معه من لا يدامعه ولا يحار فيه

وكأنما بقيت من التيسير هذا والتعسير هناك فجاءت حصنة على حيث حاء الموالي^(٦) من كل جنس يطلبون الحق الذي يطلبه كل مسلم ممن لا ينكر على أحد حقاً من الحقوق. وخالصت الحصنة الأخرى من هؤلاء الموالي وخالصت للعرب يوم كان العرب وحدهم قوام الدولة في دمشق بين العرشيين واليمانيين

أحاط الموالي بالإمام حتى قال له يعص أنصاره من العرب: «لقد غلبتنا هذه الحمراء عليت» وسار الإمام في العدل بينهم وبين العرب سيرة من يعلم أنه لا فصن لعربي على أعصى ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى

(٣) الترخص: التسهيل في الأمر والتيسير خلاف التشديد.

(٤) الأذري: المنسوب إلى أذربيجان.

(٥) السعدان: بيت به شوك تسمى عليه الإبل والحصان المشوك.

(٦) الموالي: جمع مولى وهو من أسلم من غير العرب.

أما في الشام فقد كان معاوية لا يباليهم لأنهم علة هناك لا يحسب لها حساب، ومرصاء العرب أولى من مرصاة الموالي هي دمشق حيث قامت الدولة الأموية، وحيث هان خطيبهم بعد ذلك حتى ميل إنه هم يقتلهم والبطش بهم على غير عادته، وقال لهم غير مرة: إنكم عجم وعوج!

وما كان من قبيل المصادفات أن الدولة الأموية قامت في دمشق وأن الدولة التي قوضتها - وهي دولة بني العباس - قامت في بغداد فإن دمشق ما كانت لتصلح مقاماً للدولة بعد اتساعها للعرب وانقرس والدرك والديلم وموالي الأمم من كل قبيل.

وقد كانت العصبية العربية قوة للدولة الأموية في نشأتها، وكان اختلاط الموالي ضعفاً للدولة القائمة في الجزيرة لأنهم أشتات متفرقون لم يكن منهم أحد يقبض على زمام من زمامها

وبحمت باجمة الخوارج علم تكن لهم حرثومة في الشام يتجربون منها ولكنهم أصبحوا شعبة جديدة من شعب الشقاق بين الموالي والشيعة من العرب وأصحاب الثرمت والزهد من أدعياء الاجتهاد وأدعياء الحق في محاسبة ولي الأمر على ما شرعه الكتاب

ثم قتل على بن دؤن صاحبيه المقصودين بالقتل معه معاوية وابن اعصم ما تمتع معاوية بعمله في حياته كأه أعفاه من جهاد ماضيه بالحجار والعراق، وانتفع بعده بالشقاق بين الشيعة والخوارج والموالي والعرب في رقعة الجزيرة، فإذا هم يصرب بعضهم بعضاً ويغلبهم جميعاً بأيديهم كلب تفرقوا وتقاتلوا، وما كان في وسعهم أن يتفقوا أو يكفوا عن القتال.

وإن القدرة التي خلصت بها لخلافة معاوية بين هذه الحوادث لتورب بميراثها الصادق إذا شاء المؤرخ أن يخالف بين الكتبتين فماذا كان معاوية صانعاً لو أنه بويع بالخلافة في المدينة ولم تكن له سابقة ولاية على الشام؟ وماذا كان صانعاً لو كان على الشام يومئذ مباحس يسوسها على سنة الملك ويرتكز فيها إلى قواعد راسخة من عهد العاروق وقواعد راسخة من قبل الإسلام؟

ثم انفراد معاوية بالخلافة ولزمته تبعه الدفاع عن الدولة في وجه أعدائها

فوضع المؤرخون في كفته هذه المأثرة غير مقدورة ولا محدودة، ولا منظور فيها إلى التمهيدات التي من قبيل ما قدمناه أو تربي عليها

ولاشك أن رأس الدولة الأهوية قد عمر على حمايتها ولا بد له من العن على هذه الحماية، ولما معنى هنا أنه حمى الدولة ليحمى ملكه ويحمى نفسه، فهذا قد يدخل في بدن النيات ولا يدخل في بيان القدرة التي اعانته على عمله، وبكنا نعى أن لا نزن هذه القدرة بميرانها الصحيح إلا إذا عرفت ما اصطعب به وكان لها يد فيه وعرفنا ما جرى في مجراه بحكم الحوادث، وليس فيه لها يد عملة أو تدبير مقصود فالفتح الإسلامي قد صفع دولة الروم الشرقية وقت في اعصاها وترك فيها رجال الدين واندبوا معاً يائسين من رجعة الشام إلى حوزتها، مؤمنين بسأييد الله للعرب الفاتحين عقاباً للرعاة والرعية على خطاياهم وخطاياهم.

وقد سمع هرقل صيحة الوعظ بهذا التكبر بأدنيه في مؤتمر أطاكية، وغادر سورية وهو يودعها ذلك الوداع الذي كاد الرواة أن يحفظوه بكلماته اللاتينية كما يحفظون كلمات سليمان الحكيم عن باطل الأبطل.

فحين أن يفارق لأرض السورية صاح كأنه يشج باليكاء «الوداع يا سورية، الوداع الأخير» Vale synia et ultimum vale

ورسخت هذه العقيدة في قلوب حلفائه فلم تعن فيها وفرة العدة وكثرة الجند وسلحة البر والبحر التي كانوا يجمعونها، ولا تكاد تحتص حتى تنفارق لأول صدمة أو تنفارق قبل اللقاء من أجل مدام أو عياقة^(٧) أو هام وقد روى حيون أن حفيد هرقل خضع للتسليم، لأنه رأى في امدام أنه في سالوبيكا وهي كلمة تحانسها كلمة باليونانية معناها «أعط البصر لغيرك»

وفي تاريخ ميخائيل السوري: «إن المستقم الحبار أنى بأبداء إسماعيل من الصحراء ليخرجوا الأمم من ريقه الروم»

وقد روى ابن الأثير من حوادث سنة خمس وعشرين هجرية «أن معاوية غزا الروم فبلغ عمورية فوجد الحصون التي بين أطاكية وطرطوس خالية، فحمل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة»

وم يأس العواهل الضعفاء من سورية وما جاورها من آسيا الصغرى، بل ينسوا من القسطنطينية نفسها وهموا مرات بفل العاصمة منها إلى صفليه،

(٧) العياقة: رُجر الطير والتقول بأسمائها وأصواتها ومعرف

وتركها العاهل فنستأجر فعلاً (سنة ٦٦٨ م) ليقيم له عاصمة في صفليه، فأوشك أن يقيمها لولا أنه قتل في سرقسطة؛

واقترنت يهرمه الروم في سورية هرائم شتى وشواعل متفرقة أيأسهم من العلبة على الدولة الإسلامية، ومن هذه الشواعل حرب الشعوب السلافية ومحالفتهم للمسلمين في بعض الوقائع بأسبأ الصغرى، ومنها الشقاق بين الكبيستين الشرقية والغربية، ومنها انقسام لأسطور بين قيادتين إحداهما للعاصمة والأخرى للولايات المتفرقة.

وربما كان اسم الدولة الإسلامية في إبان الفتح حماية لها تقوم في ترويع خصوصها مقام العدد والحصون، ولا أدل على ذلك من سلامة هذه الدولة في عهد معاوية الثاني ابدى اعتزل الحكومة ولزم داره كما جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي «أربعين يوماً، وقين شهرين، وقبر ثلاثة أشهر».

قال السيوطي «ولم يخرج إلى الباب ولا فعل شيئاً من الأمور ولا صلى بالناس» ولما خلع نفسه قال: «أيها الناس ضعفت عن أمركم هاختراروا من أحببتهم، ثم احتضر وهو في نحو العشرين مسألة أن يستحلف أخاه خالد، فقال ما أصعبت من خلاوتها فلم أتجمل مرارتها».

ولم يتفق المسلمون على خليفة بعد معاوية الثاني حتى قام عبدالمك بن مروان بالأمور سنة ثلاث وسبعين، أي بعد تسع سنين

ودولة تعلم من بين يده تسع سنين وهي بغير خليفة متفق عليه لا يعلم من خطر عدوها أن يحتج الدفاع عنها إلى قدرة خارقة من ولي الأمر فيها، وقد سمت من ذلك العدو سنين قبل ذلك بين مقتل عثمان ومقتل علي، ولم يكن بين المقتلين يوم سلام واستقرار من انحاز إلى الجريرة إلى الشام إلى مصر وما يليها من إفريقية الإسلامية

والثابت المعروف أن الدفاع عن الشام إنما سحخص "وتوطد قبر استغلال معاوية بولايتها في أطم عثمان، وأن الدفاع الأكبر عنها بعد ذلك إنما كان يتولاها من قبل الشرق ولواء الجريرة ومن قبل الغرب ولاية مصر وإفريقية وعندهم احدد والسفر ولهم الصلة الدائمة بالحجاز يسألون الخليفة لمدد قيام من يشاء من الولاة أن يمدوهم به، ومنهم معاوية في الشام.

(٨) استحصن استحصن الزرع حتى له أن يحصد والجل يستحكم قتله

وهذه الفترة هي تاريخ دولة الإسلامية هي التي جعلت لها تلك المهابة التي
أيست بيرنطة من جدوى الهجوم عليها، وصرفتها إلى غير هذه الوجهة من
حدودها، مع ديار القوه ونقسام الأرياء ولأعوان وضياح الثقة بالبصر، بل
باستحقاق البصر من الله

وبعد..

هالمحصل من هذه الحوادث والتعهدات أن المؤرخ الأمين مسئول أن يحضرها
جميعاً في حسابها، والا كان كلامه عن «قدرة» معاوية كلاماً جزافاً لا يؤخذ به
في تمييز أقدار الوجاه وخصائص الطباع، ولا يفيدنا شيئاً في التعريف
بالوسائل التي مهد بها معاوية لفحاحه والوسائل التي تعهدت له قبل مولده،
وقيل الإسلام

وتتلخص قدرة معاوية في خلانق مشهورة مرادفة أشهرها الدهاء والحلم
وعلو الهمة أو الطموح.

وهذه الخلانق هي موضوع البحث فيما يلي من الفصول قبل الكلام على
نشأته وعمله وموجز تاريخه وصفوة الرأي فيه

(١) جرافاً الجراف بالضم والقياس بالكسر بيعك الشيء أو اشترىك إياد بلا وزن ولا كيل

الدهاء

إذا تحدث الراوية العربى عن صفة من الصفات العامة بلغ بها حد الاستقصاء، هأئيت فى روايته كل ما يقع علمه احسن من أخبار تلك الصفة، وذكر لنا الأعلام المشهورين بها، والحوادث التى دلت عليها، والأقوال التى قالوها أو قيلت عنهم بصدد ها، والفوارق التى يختلفون بها فيما بينهم، والألقاب التى أطلقت عليهم من جرائها، ولم يتركوا مرجعاً من مراجع الدراسة التى يحتاج إليها الباحث العصرى فى استقصائه الحديث بعد استقصائهم لقديم، إلا تحليل الصفات على حسب عواملها النفسية فإنه باب لم يطرقوه ولم يطرقه أحد غيرهم من الأقدمين فى الأمم، وعذرهم فى ذلك واضح لا تلزمهم بعده حجة عذرهم أن التحليل النفسى كله دراسة حديثة تركبت على دراسات علمية أو فكرية أخرى لم يكن للأقدمين عهد بها إلى ما قبل بضعة قرون.

كذلك تحدث لنا الراوية العربى عن شجعان العرب، وفارسان العرب، وأجواد العرب، وصعاليك العرب، ودهاة العرب فى الإسلام، ودهاة العرب فى الجاهلية، وكل دوى الشهرة فى صفة من الصفات العامة التى تتعلق بها الروايات وتتفاضل بها الأخبار.

ويبدوا وباحس بقرأ كلامهم عن دهاء العرب أنهم كانوا «مولعين» بتلك الصفة خاصة، يتحدثون بها ويستطيون حديثها ويريدون منه كل ما استطاعوا، كأنهم يحاولون بالدهاء حد الإعجاب إلى حد التمنى والعطف والمشاركة فى الشعور، وعذرهم فى هذا أيضاً واضح من تاريخهم وقراريح مبارعاتهم ومصائباتهم، فإنهم كانوا ينفقدون منها الدهاء جميعاً فيجدونه حيناً ولا يجدونه حيناً آخر، ويكنهم كانوا يجدون لشجاعة والفروسية فى كل حين، وسبب آخر من أسباب الروع بالحدث عن الدهاء أنه أصبح كفوراً لشجاعة أو راجحاً عليها فى سوارين الصفات الاجتماعية، فإذا عيب رجل من رجالهم بقلة الشجاعة وجد العزاء وعوق العزاء بشهرة الدهاء أو دعواه إلى ثم يكن قد بلغ بدهائه مبلغ الشهرة الذئعة الصيت.

فالدهاء عندهم كان مزية، وضرورة، وعزاء، وغطاء للخوف والحبس، ودعوى

سهلة لمن يدعيها بغير برهان. أما الشجاعة فبرهانها حاضر لا سبيل للمعالطة فيه.

ولهذا يريد الرواة كثيراً في أحاديث الدهاء، ويوشك أن يجعلوه صفة من الصفات «السلبية» التي تقتصر بنقص الشجاعة حيث نقصت في مجال الغضب أو مجال الصولة والقتال، وكذا القارئ يفهم - بداهة - من وصف رجل بالدهاء أنه رجل لا صولة له ولا خوف من عصبه وبأسه، وربما الخوف مما يحتال به أو يكيه.

وكثير من أحاديثهم عن الدهاء يدخل في عداد هذه المعاذير أو هذه الخلال المتشابهة، ولكنهم إذا اتفقوا على نهاء رجل في سيرة حياته بحدائقها^(١) فالغالب أن يكون على شيء من الدهاء، وإن لم يكن دهاتهم كلهم من نوع واحد عند تحليل الأعمال والصفات، ولم يكن مصدر ذلك الدهاء ملكة واحدة في العقل أو في الطباع.

لقد كانوا يطلقون الدهاء على وسيلة «غير صريحة» يبلغ بها صاحبها مأربه وينتهي بها إلى منفعته فكل حيلة «غير صريحة» فهي دهاء على سواء.

إلا أن الواقع أن ابوسائل «غير صريحة» لا تتفق في مصادرها العقلية فقد يعتمد الرجل في دهانه على قدرة عقلية فائقة يتسلط بها على الناس فيسخرهم في مطامعه ويفودهم كما يقاد المسخر «بالتنويم المغناطيسي» لخدمته فيما يستفيدون منه وفيما لا فائدة لهم فيه على الإطلاق. وقد يكون فيه الصبر لهم كل انصر وهم لا يفقهون، ويعشاهم السحر بفشاوته فلا يستمعون لما يقال لهم غير ما يقوله ذلك الدهية أو يوحيه إلى شعورهم بغير مقال. هذا هو الدهاء من الطراز الأول.

ويليه الدهاء الذي لا يعتمد على قدرة عقلية فائقة ولكنه يعتمد على مهارة «مادية» يستطيع بها صاحبها قضاء المصالح والتعامل مع غيره على أساس «النياس» في المنفعة المعروفة التي يفهمها المتبادلون جميعاً بغير حاجة إلى تعريض أو خداع أو إقناع.

رجل يمتلك السلطان أو العار، وأناس يحتاجون إلى سلطانه وماله، ولا يقدرون على بسوغ تلك الحاجة من غيره. فلا هو يخدمهم ولا هم يخدمونه، لأنهم كلهم

(١) بحدائقها: جمع حدائق وهو الجانب، وأهده بحدائقه أي دسره.

يعرفون ما يطلبونه ويعرفون وسيلتهم إليه، فلا خادع فيهم ولا مخدوع، وإن لم يكونوا جميعاً صرحاء فيما ينوون به أو يتوكلون إليه من أى هذين الطارين دهاء معاوية؟

أمر طراز القدرة العقلية الفائقة التي تسحر الأعوان مفادين مستسلمين مغمضى الأبصار والبصائر، أم من طراز القدرة المادية التي يعطى وبأخذ ويأملها طلاب الحاجات، لأنهم يعرفون ما يحتاجون إليه ولا يعرفون طريقاً إلى حاجاتهم تلك غير هذه الطريق؟

بأى الدهاءين تمكن معاوية من اجتذاب عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزيد بن أبيه وغيرهم من الدهاة الذين سارت بدهائهم الأمثلة في صدر الإسلام؟

لعلنا نستطيع أن نقول: إن هؤلاء الدهاة ومن جرى مجراهم قد خدعوه وسخروهم لقضاء مآربهم، كما نستطيع أن نقول: إنه هو قد خدعهم وسخرهم لقضاء مآربه.. فإبهم جميعاً قد أخذوا ناحزاً مضموناً حيث يأخذ منهم لعوض مقدراً غير مضمون، وأياً ما كان القول فليس دهاء معاوية هذا دهاء القدرة العقلية الفائقة التي أرقعت على روح أعوانه زعماً نخفى عليهم حقيقته وينقادون به إليه وهم لا يفقهون وإنما أخذ منهم وأخذوا منه على حد سواء، وبما أعطاهم المصلحة التي يريدونها ولا ينتظرون قصاءها عند غيره، ولم يتمكن من إعطائهم تلك المصلحة إلا لأنه سبقهم إلى ولاية الشام عشرين سنة ووضع أيديه على المرافق التي لم يكن في وسع واحد منهم أن يصنع عليها يد من أيديه

إن رواية التاريخ العربي يحدثونها كعادتهم في التوضيف والتقسيم، عن دهائهم في صدر الإسلام فيقولون: إنهم أربعة عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزيد بن أبيه، ومعاوية بن أبي سفيان ويقولون: إن ابن العاص للبدية، والمغيرة للمعضلات، وزيد لكل كبيرة وصغيرة، ومعاوية للروية

وهذا تقسيم صحيح في حملته على الإيجاز، وقد يعرض له بعض لتعديل عند الإسهاب والتفصيل، ولكن الرأي الذي لا شك فيه أنهم جميعاً من الدهاة على اختلاف نوع الدهاء، وأن دهاء الثلاثة الأولين هو الذي قدسهم إلى معاوية ولم يكن دهاء معاوية هو الذي هادهم إليه فقد عرفوا مطالبهم وعرفوا أنهم يحدونها عند معاوية حيث لا يجدونها عند غيره، ولو أنهم سمطعوا أن سارعوه الخلافة

لما سلموها له طوعاً ولما قنعوا منه بالمصيب الذي رتصوه في خلافته، ولكن الخلافة كانت مطلباً بعيداً عليهم، فلم يصيغوا فيه جهودهم ويطروا إلى غية المطالب دونه قبلوها بجهد يسير.

لم تكن لأحد منهم ولاية تمتد فتشمل سائر الولايات وتنتهي بذلك إلى خلافة إلا زياد بن أبيه فإنه كان والياً على أقاليم من فارس يخشى بأسه لما عنده من المال والجنود، ولكنه مخمور النسب يدعو به بابن أبيه قبل أن ينسبه معاوية إلى أبي سفيان ولن يسلس رماح الخلافة لرجل مثله إلى جانب طالب من طلابها كمعاوية أو من سواه معاوية في المسب والمكانة.

أما ابن العاص والمغيرة بن شعبة فقد كانا من أحاد الرعدة يوم شب الدراع على الخلافة بين عميد بني هاشم علي بن أبي طالب وعميد بني أمية معاوية بن أبي سفيان، ولم يكن لأحدهما جند ولا مال ولا عصبية تنافس لعصبة الهاشمية أو العصبية الأموية، فهما خيقلان أن ينظرا إلى المطالب العيسوي حيث تبسر، وقد نظرا إليه فلم يعرفا له طريقاً أقرب من طريق معاوية وبخاصة بعد مقتل علي رضوان الله عليه

وقصة كل رجل من هؤلاء الدهاة الثلاثة لا تدع محلاً لظن بأنهم سيقوا إلى نصرة معاوية مخدوعين أو منقادين بحيلة من حير الدهاء، بل هي حرية أن تنبئنا بغلبتهم على معاوية في المبادلة، وأنهم أخذوا منه فوق ما أعطوه، وأنه هو قد أعطاهم شيئاً في اليد حين كان عطوهم كله شيئاً في التقدير، إما من قبيل الأمل المنظور أو من قبيل الخوف المحذور.

دعا عمرو بن العاص ولديه عبد الله ومحمدًا فقال لهما إني قد رأيت رأياً ولستم بالذين ترداني عن رأبي، ولكن تشيران عليّ. إني رأيت العرب صاروا عزيزين يضطربان وأنا صرح نفسي بين جراري مكة ولست أرى بهذه المصلحة، فإلى أي الفريقين أعمد؟

قال عبد الله - وهو من أهل التقوى - إن كنت لا بد فاعلاً فإلى عليّ. قال عمرو إني أتيت علياً يقوى لي إنما أنت رجل من المسلمين، وإن أتيت معاوية يخطبني بنفسه ويشركني في أمره وكان محمد ابنه الآخر على هذا الرأي فقال لهما عمرو أما أنت يا عبد الله فقد اخشيت لآخرتي، وأما أنت يا محمد فقد اخشيت لدميائي.

ويروى أنه لما استشارهم قال له عبد الله إن النبي عليه السلام قد توفي

والشبحان بعده وهم راصون عنك، فأرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يحضج الناس، وقال له محمد: أنت ماب من أميد العرب، فكيف يحتمع هذا الأمر وليس لك منه صوت؟ فأحابهما بما تقدم وأنى معاوية فوجدهم يطلبون دم عثمان فمضى معهم يفر، اطلبوا دم الخليفة المقتول.

والمشهور في رواية صاحب الإمامة والسياسة ابن قتيبة أن معاوية كان غافلاً عن شأن عمرو وعن خطره في معاوية أي الفريقين فأعرض عنه، حتى نبهه عتبة بن أبي سفيان إلى شأنه وخطره فكتب إليه يقول «أما بعد، فقد كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك، وقد سقط عليهما مروان بن الحكم في راحة من أهل البصرة، وقدم علي جريز بن عبيد الله في بيعة علي وقد حبست نفسي عليك فأقدم على بركة الله»

وتردد عمرو قليلاً بين شد الرحال وحط الرحال فقام له غلامه وردان - وهو من الموصوفين معه بالدهاء أما إنك إن شئت بدأتك في نفسك اعتصمت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت: مع علي الآخرة بلا دنيا، ومع معاوية الدنيا بلا آخرة، فأنت واقف بينهما، فقال عمرو ما أخصأت ما في نفسي، معاً ترى يا وردان؟ فقال أرى أن تعيم في منزلك فإن ظهر أهل الدين عشت في ديسهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستعصوا عنك، فقال عمرو الآن حين شهرتني العرب بمسيرى إلى معاوية؟

وقدم عمرو على معاوية فساومه على رصده، فلم يقنع بما دون ولاية مصر مدى الحياة، وهذه صفقة كأنها صفقة المنتصر الذي يملئ شروطه في حومة الحرب؛ لأن ابن العاص كان ولياً على مصر فعرضه عثمان، ولم يزل واجداً على عثمان لذلك، حتى قيل: إنه كان يحرض عليه ويحادر بين أنصاره، فإذا جاء الرجل قوماً يطلبون دم عثمان فأتى منهم ما أباه عثمان عليه ما بما هو الرغمة ولا مبالاة بما يقولون وبما يقال.

وشر على معاوية أن يجيبه إلى هذا المطلب لصخم «هتلكا معاوية - كما جاء في الإمامة والسياسة» وقال ألم تعلم أن مصر كالشام؟ قل يلى، ولكنها إما تكون لى إذا كانت لك، وإما تكون لك إذا طلبت علياً على العراق. فدخل عتبة بن أبي سفيان على معاوية فقال أما ترعى عمراً بمصر؟ ر هي صفت لك نفسك لا تغلب على الشام فلما سمع معاوية قول عتبة بعث إلى عمرو فأعطاه مصر وكتب في أسفل الكتاب ولا ينقص شرط صاحبه عكتب عمرو ولا ينقص صاعه شرطاً»

وعلى هذا خرج عمرو من الصفقة غالباً غير مغلوب، ومهم ما يبتغيه فقصد إليه ولم يكن معاوية يفهم ما يبتغيه إلا بعد مصافحة واستعصاء. وقد عقد معاوية لعمرو بعد ذلك أربعة ألوية نواء له، ولواء لكل من ولديه، ولواء لخلامه وردان. يقال هي مصطلحات عسكراً عن الحيلة التي لا تخفى ولا حاجة بها إلى إخفاء إياها «لعب على المكشوف» كأنها هي لعبة تلعب نفسها بنفسها ولا محل فيها لتدبير اللاعبين لظهوره واتباعه في اللعب منهجاً لا محيد عنه، وهكذا كانت الحيلة بين عمرو ومعاوية.

قال عمرو لمعاوية «أترى أننا خالفنا علياً لعصل سناً عليه؟ لا والله إن هي إلا الدنيا تتكالب عليها، وإيم الله لتقطعن لي قطعة من دميائك وإلا ساهدتك^(٢)». وعسى هذه الضلة «المكشوفة» بدأت المعاملة بين الرجلين وكان حظ عمرو فيها أكبر من حظ معاوية، بالقياس إلى ما بذل فيه

أما المغيرة بن شعبه فقد كان يبيع سمكاً في البحر ويشتري به سمكاً مطبوخاً شهياً على العائنة

عرله الفاروق عن ولاية الكوفة لأن قوماً شهدوا عليه أنهم وجدوه على ربيعة مع امرأة غير امرأته وقال هو إنها امرأته، وإن الأمور القيس على الناظرين لشبه بين المرأتين ولم تثبت التهمة عليه ثبوتاً يوجب إقامة الحد، ولم تسقط عنه سقوطاً يزيل الشبهة، فعرله الفاروق وأبقاه زعماً بغير عمل كأنه يؤدبه ويستقيبه، ثم بدا له أن يعيده إلى ولايته، فدعاه إليه وشدد عليه ليحتجب بالشبهات حتى الطنة وولاه الكوفة مرة أخرى فلما قام عثمان بالخلافة عزله، واعتزل السياسة حتى قتل عثمان، وبويع على بالخلافة هي المدينة، فذهب إليه يهد في العهد الجديد للرفي^(٣) عند الإمام وعند صاحب الأمر بالشام معاوية - في وقت واحد، وأشار على الإمام بإقرار معاوية في ولايته ليدبر له بالولاء ثم يعزله متى شاء. فلما أبى الإمام أن يقره عاد إليه في اليوم التالي فقال «إني أشرت عليك أول مرة بالذي أشرت وخالفني فيه، ثم علمت أن الصواب فيما رأيت، فاعزلهم أي ولاية عثمان واستعن بمن تثق به فإنهم أهون شوكة مما كان»

(٢) ساهدتك مأخذ الرجل صاحبه خالفه وعادف والعذر الحرب أعجمه يعرفه على القتال وكشفه به

(٣) الرفي القرية، والدرجة والمنزلة

وعاد المغيرة إلى عزلته يترقب، ثم قصت إلى معاوية بعد رجحان كفته في أمر الحكمين غير مجارف بشيء بعد استقرار أمر الشام على الأقل - لمعاوية وحريه، فولاه معاوية إمرة الحج بعد اغفراده بالدولة وكان المغيرة ينظر إلى ولايته الأولى على الكوفة كما نظر ابن العاص إلى ولايته الأولى على مصر، فلما أراد معاوية أن يعهد بهذه الولاية إلى عبد الله بن عمرو بن العاص ذهب إليه يمس النصيحة التي يأخذ منها أكثر مما يهب، وقال له: أتعلم عبد الله على الكوفة وآباءه على مصر؟، بك بين مابى الأسد فاسمع له معاوية وعزل عبد الله وولاه في مكانه، وسمع عمرو بخبر هذه المكيدة مردها بمثلها، ولم يطلب إعادة عبد الله إلى ولايته، بل قمع محرمان المغيرة من ولاية الخراج واصطبع النصيحة للخليعة الحديد فجاءه يقول إنك تستعمل المغيرة على الخراج فيأخذه ولا تستطيع أن تنزعه منه، والرأي أي تولى على الخراج رجلاً يحافك ولا تبالي أن تعزله متى شئت، وأن تستعمل المغيرة على لصلاة والإمارة، فلا يعزى عليك بغير ما فاتبع معاوية مشورته غير كاره، لأنها أكسبته المال والعداوة بين الداهيتين.

ثم استقر الأمر لمعاوية هناك عليه خطب المغيرة وهم بعزله، فسمى^(٤) الخير إلى المغيرة من عيونته^(٥) حول معاوية، وأشفق من غضاضة^(٦) العزل، فآثر أن يذهب إليه معتزلاً، وأن يحتال مع ذلك حيلته التي يرغب بها معاوية على استبقائه وهو عزيز الجانب مرغوب فيه.

شخص إلى دمشق ماخلى بيزيد كأنه يلقاه عرساً، ووسوس له أن يطلب إلى أبيه تسميته بولاية العهد، وزين له الأمر قائلاً: «إن أصحاب النبي وكبراء قريش قد ذهبوا، وبقي الأبناء وأنت من أصلهم، فلا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة؟ قال أو ترى ذلك يتم؟ قال نعم فدخل يريد على أبيه وأخبره بمقالة امغيرة، فتعجل معاوية لهاء واستدعاه ليظمنن إلى حفيعة الخبر، وابتدره سائلاً ما هذا الذي يقوله يزيد؟ قال إني يا أمير المؤمنين قد رأيت ما رأيت من سفك الدماء بعد عثمان، وفي يزيد منك خلف فاعقد له البيعة بعدك، فإن حدث بك حدث كان كهفاً لئامس وخلفاً منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة قال معاوية ومن لي بهذا؟ قال أكفيك أما أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بين

(٥) عيونته جواسيسه

(٤) يسمى بى إليه بعه

(٦) غضاضة فتنة

هذين العصورين أحد يخالف « فأمره معاوية أن يرجع إلى الكوفة وأن يتحدث مع ثقاته في ذلك، ثم يرى ما يرى.

قال المغيرة لبعض هؤلاء الثقات لقد وضعت رجس معاوية في عرو^(٧) بعيد الغاية وفتقت عليهم عقدا لا يرق^(٨) أبداً ثم أجابه ناس من قبيله إلى بيعة يزيد فأرسل منهم عشرة إلى دمشق، ولم يرسل سائرهم ليصد في جبل المساومة، وكان من حكمة معاوية أنه استمهلهم وطلب إليهم ألا يعطوا بإعلان رأيهم، ولم يكن إعلان هذا الرأي من أرب المغيرة، لأنه باق في ولايته ما احتاج الأمر إلى بقاءه قبل إعلان البيعة والاتفاق عليها، وفي كل أولئك كان المغيرة كاسب لا يفقد شيئاً يقدر على استبقائه، فلما خرج مستعقياً فذلك خير من خروجه معزولاً، وإن كسبت المساومة على ولاية يزيد للعهد مجدبة له فيما أراد، فقد ربح ولم يخسر، وباع السمت في البحر والشبكة من عند غيره، وإن أعرض معاوية عن المساومة ولم يقبل عقد البيعة لآبئه - وهو أبعد لفروص - فقد كسب الوالي المعزول ولاء يزيد ولم يفقد ولاء معاوية، لأنه مفقود قبل ذلك. ولعله يرمى من هذا التلويح بولاية العهد إلى استثارة الأمير المحروم وإغرائه بأبيه واستنمائه منه بالكيد له في حجاب الحرم^(٩)، إن لم يقدر على الانتقام منه بالثورة والعصيان، ويقال بحق في جميع هذه الأحوال إن المخدوع من الرجلين - معدوية والمغيرة - لم يكن هو المغيرة إن كان لا يد بينهما من مخدوع.

وكان زياد بن أبيه آخر المبايعين من الدهاة الثلاثة، فلم يستطع معاوية أن يقنعه بترك فرصة من الفرص التي كان يترقبها ويؤثرها على مبايعة معاوية بالخلافة، ولم يقبل على معاوية وله رجاء قط في الإعراض عنه، مع أنه كان أول المبطلين إلى بيعتهم في تقدير بني أمية، لأنه كان - كما نقول في عرف هذه الأيام - ولداً شرعياً لأبي سفيان، وأخاً لمعاوية من أبيه.

ولاه علي بن أبي طالب فارس وكرمان، فمرس إليه معاوية ينوعه، فقام زياد في الناس خصيباً يفلظ اجواب ويرد الوعيد بمثله، وجعل يقول في خطبته على رؤوس أتباعه ومسمع من أعوان معاوية « لعجب كل العجب من ابن أكلة الأكباد ورأس النفاق يحومني بقصده إيماني وببني وببني ابن عم رسول الله في المهاجرين

(٨) يروق، وثق الشيء منه، ضد فتقه

(٧) عن كتاب الرجل من جلد.

(٩) الحرم بكسر الحاء الصبح

والأنصار، أما والله لو أدرى لي في لقائه لو جئتني أحمر^(١١) مخشياً ضرباً بالسيف» فكثب إليه معاوية يترسأه ويلين القول، ودعاه يزيد بن أبي سفيان، ثم قال: «كأنت لست أخى، وليس صخر بن حرب أباك وأبى، وشتان ما بينى وبينك. أصيب بدم ابن أبى العاص وأب تقاتلنى، ولكن أدركك عرق الرخاوة من قبل المساء فكنت كتاركه يصبها بالعراء وملحفة بيض أخرى جناحها. وقد رأيت ألا أؤاخذك بسوء سعيك وأن أصح رحمك وأبتغى انثواب من أمرك فاعلم - أبا المغيرة - أنك لى خصت البحر فى طاعة القوم فتضرب بالسيف حتى يقطع عتبه لما ازدادت منهم إلا بعداً، فإن بنى عبد شمس أبغض إلى بنى هاشم من الشقرة^(١٢) إلى الثور الصريع وقد أوثق للذبح. هارح - رحمك الله - إلى أصلك واتصل بقومك، ولا تكن كالموصول يطير بريش غيره. فقد أصبحت ضال النسب، ولعمري ما فعل بك ذلك إلا الحاج^(١٣) فإن أحببت جانبى ووثقت بى فامره بأمرة، وإن كرهت جانبى ولم تثق بقولى ففقر جميل^(١٤) ولا على ولا لى. والسلام»

على أن زياداً لم يستحب لدعوته حتى قتل الإمام وصالح ابنه الحسن معاوية على شروط تسلمه زمام الأمر كله فى حياته، ولبت معاوية قلقاً من جانبه لا يأمن مكره وجراته، يقول لخاصته: ما يؤمى أن يبايع لرجل من أهل البيت فهذا هو قد أعاد على الحرب جدعة^(١٥). فتقدم المغيرة يتوسط بينهما ليستد ساعده برياد فى كيد لابين العاص، واستأذن معاوية من إتيائه فأذن له أن يلقاه ويتنظف فى خطابه، وجاءه المغيرة على يأس من خلافة بنى هاشم وأمل مبسوط مع المواعيد وتصحيح النسب فى خلافة بنى مية، واستجاب زياد للمغيرة فى أمر البيعة لمعاوية، وتمتع بعد ذلك فى أمر البيعة ليزيد بولاية العهد، وأنفذ رحلاً من لقائه إلى الخليفة ليوصيه بالأناة «فإن دركاً^(١٦) فى تأخير خير من أناة فى عجلة» ولولا أنه مات قبل البيعة بولاية العهد لما استقر الأمر على فرار

هؤلاء هم الدهاة الثلاثة، لم يظلم أحد منهم على رأيه بدهاء من معاوية، وإنما أبادوا منه جميعاً سوى ما أبادوه

(١١) أحمر أحمر هنا يعنى شاق ومحب (١١) السقرة بالعرج السكى العظيم.

(١٢) اللجاج: القسوى فى الأمر ورفض الاقتناع عنه

(١٣) جدعة: فتحتين، وأعاد الحرب جدعة أى جدبة كما بدأت

(١٤) دركاً: إدراك والحق

وتذكر في هذا المعرض بيعة الحسن، فلا يقوى قائل من المطّيعين في دهاء معاوية أو من المقصدين في أمره إنه كان عملاً من أعمال الدهاء دخلت فيه الحيلة على الحسن وصحافته فإنما بايع الحسن بعد أن ثار به جنده واجترأوا على نهب معسكره، حتى امتدت أيديهم إلى السباط الذي يجلس عليه وجرحوه في مخذه. وقيل في أسباب تلك الفتنة ما قيل من مختلف الأسباب والإشاعات، فزعم بعضهم أنها نشبت في المعسكر بعد أن شاع فيه مقتل القائد الأكبر قس بن سعد، وزعم بعضهم أنها نشبت فيه بعد إشاعة التسليم وقبول المصالحة بين الحسن ومعاوية. ولا أمان على كل حال لأنصار يحترقون على إمامهم بالذهب والسطو لسبب من الأسباب كائنًا ما كان، بعد ما تقدم من عنت هؤلاء للإمام في حياته وشقاقهم فيما بينهم، وستبدد كل منهم بفتواه في أمر الدين وأمر السياسة والولاية فلو لم يكن معاوية على حظ من الدهاء - قل وأكثر - لما استعصى عليه أن يظهر من الحسن بالمصالحة على شروطه فصلاً عن المصالحة على الشروط التي أمليت عليه.

وم يذكر أحد غير هؤلاء من السابيين المعدودين الذين قصدوا إلى معاوية بالبيعة أو الموازنة إلا كان على عم بما يقصده قبل لقاء معاوية، فلا خداع في شأن واحد من هؤلاء المعدودين ولا اخداع.

حذاء عبيد الله بن عمر مفرح به فرحاً شديداً، وقال لعمر بن العاص، ما يمنع عبد الله أن يحببنا كما جاء ما أخوه؟ قال عمرو، إنما حياءك عبيد الله لأنه يخشى قصاص ابن أبي طالب منه لقتله الهرمزان بغير قصاء، وكان عبيد الله قد قتل الهرمزان لأنه شوهه مع أبي لؤلؤة قبل مقتل أبيه، وشوهه معه الخنجر الذي حملته أبو لؤلؤة ووجد معه بعد مقتل الفاروق فأشار الإمام بـقصاص منه، وأبي عثمان ذلك بكبلاً يقال قتل عمر بالأمس، ويقتل ابنه اليوم، فلما بويغ الإمام بالخلافة في الحجاز خرج عبيد الله إلى معاوية وتنادى مع المصدين بثار عثمان، وقال للإمام في بعض المواقف بين الحيشيين الحمد لله الذي جعلك تطلبني بدم الهرمزان وجعلني أصلبك بدم عثمان.

ودهب عقيل بن أبي طالب إلى أخيه يطلب منه مالاً لسداد ديون عليه فأظفـه

موعد العطاء له ولسائر أصحاب الأعطية، فتركه وذهب إلى معاوية، فقصى له جميع بيونه، وقال له بعد أيام، أبا خير بك من أخيك . قال عقيل: صدقت! إن أخي أثر بيته على دنياه، وأنت أثرت دنياك على دينك، فأنت خير لي من أخي، وأخي خير لنفسك منك!

فكل دهاء يذكر لمعاوية هبما يذكر إلى جانبته رعد^(١٥) أو عطاء وولاية يستفيد منها من ينصره ولا ينخدع عنها في مبدلة النفع بيته وبيته، ولا جرم كان العطاء عماد هذا الدهاء وكان نقش الخاتم الذي تختتم به بعد ولايته «لكل عمل ثواب» ولهذا أعياء كل الإعياء أمر المخالفين الذين لا تعمل فيهم رقية^(١٦) المال والولاية. فامتنع عليه عيد الله بن عمر لأنه لم ينخدع بالدرهم والدينار وإنما ينخدع الرجال بهاء كما قال، وامتنع عليه قيس بن سعد ذلك البطل القوي الأمين الذي حفظ عهده لعلي بن أبي طالب قبل عزله إياه وبعد عزله، وظل حاقظاً لهذا العهد بعد مقتله رضوان الله عليه، ومصالحة الحسن لمعاوية، وانقضاء الولايات واحدة بعد أخرى عن أعوان بني هاشم، وقد دانت الدنيا للخليفة الجديد فأرسل إلى قيس صحيفة ببصاء موقعة بتوقيعه مختومة بخاتم الخليفة يكتب فيها ما يشاء، فلم يكتب فيها إلا عهداً بالأمان لأصحابه الذين نصروا علياً والحسن بقيادته، وحلى الخليفة بالكوفة يتلقى البيعة من مخالفيه القدماء، فقال قيس: إن كنت لأكره مثل هذا اليوم يا معاوية فقال له، مه^(١٧) رحمك الله، عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، قال قيس لقد حرصت أن أفرق بين روحك وجسدك قبل ذلك، فأبى الله يابن أبي سفيان إلا ما أحب، قال معاوية فلا يور أمر الله فأقبل قيس على الناس بوجهه فقال معشر الناس لقد اعتضمت الشر من الخير، واستبدلتم الدل من العز، والكفر من الإيمان، فأصبحتم بعد ولاية أمير المؤمنين وسيد المسلمين، وابن عم رسول رب العالمين، وعد ولكم الطليق بن الطليق، يسومكم^(١٨) الحسف ويسير فيكم بالعسف^(١٩)، فكيف تجهل ذلك أنفسكم، أم طيع الله على قلوبكم وأنتم لا تعقلون! عجبت معاوية على ركبته ثم أحد بيده وهما أقسمت عليك ثم صوى على يده وسادى الناس. يايع قيس فقال كذبتم والله ما

يايع، وصاح صوته بين الصباح والصحيح

(١٥) رعد بكسر الراء العطاء والصلة

(١٦) رقيه معوية

(١٧) مه اسم فعل أمر بمعنى لكف

(١٨) يسومكم الحسف يكلفكم المشقة والذل.

(١٩) بالعسف الجور والظلم

ولم يزل أمثال عبد الله بن عمرو رقيس بعد سعد بمفرل عن حرب الدولة الجديدة إلا من أثر الجهد في غزو الأعداء ولم يحد علمًا للجهد غير علم الخليفة القائم بتجديد الجند وتحريك السرايا على أطراف الدولة من بلاد القياصرة والأكاسرة، وبطلت كل حيلة من حيل «الثواب» بالمال والولاية مع أمثال هؤلاء القوم الذين كانوا بحق عند المسلمين «بقبة الناس».

إلا أن معاوية كان يصطمع الحيلة التي تحديه في كفاح خصومه، وإن لم تكن من قبيل الغلبة بقوة النفس وصولاً «الشخصية» الطاغية على من دونهما في الناس والمضام.

كانت له حيلته التي كررها وأتقنها وبرع فيها واستخدمها مع خصومه في الدولة من المسلمين وغير المسلمين، وكان قوام تلك الحيلة العمل الدائم على التفرقة والتخذيذ بين خصومه بإلقاء الشبهات بينهم وإثارة الإحن بينهم، ومن كانوا من أهل بيته وذوي قرياه.

كان لا يطبق أن يرى رجلين ذوي خطر على وفاق، وكان التناهي «انفطري» بين ذوي الأخطار مما يعينه على الإيقاع بينهم، كما كان يحدث بين المصيرة بن شعبة وعمرو بن العاص بغير تدبير منه أو يتدبير هين لا تخفى خبيثته على الرجلين، فكان يسمع لكل منهما في الآخر، ويطيع كليهما في دسه وإعرائه، ليعلم بعد ذلك بما صنعه كل منهما من الكيد لصاحبه، فلا يتفقا عليه، وما هما بمتفقين، ولا مآرب لهما في الاتفاق، بل المآرب الذي يحرصان عليه معاً أن يقوم بينهما حجاز يعطيهما ما يسألان ويكيد يكيدهم كما يحبان.

ودأبه في الواقعة بين أهل بيته كدأبه في الواقعة بين النظراء من أعوانه؛ فلم يكن يطبق أن يتفق بنو أمية من غير بيت أبي سفيان، ولم يكن يهدأ ويستريح أو يوقع بين آل عمومته من بني العاص. قال ابن الأثير في أخبار سنة أربع وخمسين «وفيها عزل معاوية سعيد بن العاص عن المدينة واستعمل مروان، وكان سبب ذلك أن معاوية كتب إلى سعيد بن العاص أن يهدم دار مروان ويقبض أمواله كلها ليحعلها صاعية ويقبض منه ذلك وكان وهبها له - فراجع سعيد ابن العاص في ذلك، فأعاد معاوية الكتاب بذلك، فلم يفعل سعيد ووضع الكتابين عنده، فعزل معاوية مروان، وكتب إليه يأمره بقبض أموال سعيد بن العاص وهدم داره، فأخذ الفعلة وسار إلى دار سعيد ليهدمها، فقال له سعيد يا أبا عبد

الملك، أنهدم داري؟ قال نعم كتب إلى أمير المؤمنين، ولو كتب إليك في هدم داري لفعلت، فقال ما كنت لأفعل، قال بلى والله! قال كلاً، وقال لغلामه. ائتني بكتاب معاوية، فجاءه بالكتابين، فلما راهما مروان قال، كتب إليك فلم تفعل ولم تعلمي؟ قال سعيد، ما كنت لأمن عليك، وإنما أراد معاوية أن يحرص ببنا، فقال مروان أنت والله خير مني وعاد ولم يهدم دار سعيد. وكتب سعيد إلى معاوية العصب مما صنع أمير المؤمنين بنا في قرابنا أن يصغن بعضنا على بعض فوالله لو لم يكن أولاد أب واحد لما جمعنا الله عليه من بصرة أمير المؤمنين الخليفة المظلوم وياجتماع كلمتنا^(٢٠) لكان حقاً على أمير المؤمنين أن يرعى ذلك فكتب إليه معاوية يعتذر ويتنصل^(٢١) وأنه عائد إلى أحسن ما يعهده. وقدم سعيد على معاوية فأثنى عليه خيراً، فقال له معاوية ما ياعد بينك وبينك؟ قال خافني على شرفه وخفته على شرفه قال فماذا له عندك؟ قال أسره^(٢٢) شاهداً وغائباً. ومضى معاوية على هذه الخطة التي لا تتطلب من صاحبها حظاً كبيراً من الحيلة والروية ولعلها تناقض الدهاء فيما ينكشف من عللها التي لا تدق على فهم أحد، فلو أنه استطاع أن يجعل من كل رجل في دولته حرياً مبادلاً لغيره من رجال الدولة كافة، لفعل، ولو حاسبه التاريخ حسابه الصحيح؛ لما وصفه بغير مفرق الجماعات، ولكن العبرة لقارئ التاريخ في رمة الأعمال وأرجال أن تحد من المؤرخين من تسمى عامه حين انعد بالذلة عدم الجماعة، لأنه مرقق الأمة شيئاً شيئاً فلا تعرف كيف تتفق إذا حاولت الاتفاق، وما لبث أن تركها بعده تخلف في عهد كل خليفة شيئاً شيئاً بين ولاية العهد.

وكانت خطة التفرقة عامة عنده لا يقصرها على الخصوم ليصرب بعضهم ببعض ويتقى شر فريق منهم بشر فريق، بل كان يتوخى هذه الخطة مقدماً ومؤخراً، وبين كل فريقين وعلى كل حال وفي كل موقف كأنها عرض مقصود لذاته أو كأنها خير «مطلق» لا شراً فيه.

وبدا بهذه الخطة في السياسة العامة على عهد عثمان، فخص المهاجرين بدعونه قبل مرجعه إلى الشام، وقام بينهم بعون بعد أن دعا عثمان للمقال «أما بعد يا معشر المهاجرين وبقيته الشورى وإياكم أعنى وإياكم أريد». ثم أتبع ذلك

(٢٠) يتنصل: تنصل إلى فلان من الشيء، خرج وتبرأ.

(٢١) أسره: الأسر القوة وضمانة الخلق.

بكلام طويل في معناه، يقول فيه «يا معشر المهاجرين وولاة هذا الأمر ولاكم الله إياه بأبتم أهله، وهدان البلدان مكة والمدينة مأوى الحق وممهاة، وإما ينظر التابعون إلى السابقين والبلدان إلى البلدتين فإن استقاموا استقاموا، وإيم الله الذي لا إله إلا هو. لنن صفت إحدى اليدين على الأخرى لا يقوم السابقون للتابعين، ولا البلدان للبلدين، وليسلى أمركم ولينقل الملك من بين أظهركم، وما أنعم في الناس إلا كالشمسة السوداء هي الخور الأبيض»^(١٢).

ويروى بعض المؤرخين أنه لما استقر له الأمر، وبويع له بالخلافة، وحاءه وفد الأنصار أمر أن يدعى كل منهم باسمه إلى حصريه بمشوره عمرو بن العاص الذي كره أن يدعى لجميع كله باسم الأنصار، ولكن عمرو بن العاص لم يكن معه يوحى إليه حين خص المهاجرين بتلك الدعوة قبل أن يتقفا على شيء من أمر الدولة، ولم يكن سلطان عمرو هو الذي احتفى به الأخطل حين اجترأ على هاء الأنصار فقال

ذهبت قريش بالمكاري كلها واللؤم تحت عمام الأنصار
فإنما اجترأ الشاعر هذه المرأة بما علم من رضا الخليفة وأمانه أن يصيبه
مكروه من جراء ذلك الهاء.

وام تلقف خطبة انتفرقة عند هذه التفرقة بين مكة والمدينة. لأنه عمد إلى أهل مكة والطائف في بقعة واحدة ففرق بينهما حين أثر الثقفيين وهم أمر لطائف بزلفه وسر أمر بعده سنة هذا الإيثار، فكس من رجال بني أمية المغيرة ورياء والحجاج ومحمد بن القاسم ورط من الأقربين والصنائع^(١٣)، وكانت الطائف على عهد معاوية وخلفائه كالحرس على أهل مكة ممن بقى فيها غير الأمويين السفيانيين، وقد أوقع بين هؤلاء الأمويين كما تقدم فقسهم بين بني حرب وبني العاص، وقسم بني العاص بين بيت سعيد وبيت مروان.

ومن خصط التفرقة التي حسنت لديه في حيثها، وساءت عقباها بعد حين، وبعد كل حين - ذلك اندراع المعشوم بين اليمانية والمضرية، أو بين الكلبيين والقيسين على اختلاف النسب والعباوين، وقد خبط^(١٤) الأكثرون من مؤرخي

(١٢) الصنائع جمع صنيع أو صنعة تفوق هو صنيعي أو صنوعي أي الذي ربيته وخرجه

(١٣) خبط سار على غير هدى

العصر في تحليله بمختلف العطل، إلا العلة المقصودة التي دهرت في ذلك العصر أسوأ تدبير، ولعل المديرين كانوا يحسبونه يومئذ أحسن تدبير.

والعصبية في القبائل العربية خليفة لا يهمل في حساب المصالحات والمناظرات في زمن من الأزمان، ولكنه من اسخف أن يقال إن العصبية كانت علة انتصار اليمانية لبني أمية على بني هاشم، وإن اعتزاز الهاشميين بالنبوة هو الذي أحفظ عليهم صدور القبائل من غير المضربين الذين ينتمى إليهم بيت النبوة من بني هاشم.

مقد كان بنو هاشم وسوا أمية جميعاً من قريش، وكان اعتزاز بني أمية بالنسبة القرشية أظهر وأحقر من اعتزاز الهاشميين عند قيام دولتهم = دولة الأمويين - إن كانت هذه النسبة حجتها من جانب النسب في استحقاق الخلافة، وقد كانت أيضاً هي الفطر الوحيد الذي رحب بهواي الإمام على في أول بيعته، وكان الأنصار أهل المدينة من حزبه وهم - بين أوس وخزرج - ينتمون إلى اليمانية، وكانت كنفة تنصره وظلت على نصرته ونصرة أبنائه زمن صويلاً بعد قيام الدولة الأموية والدولة العباسية، وكان أشد أعوان العاطميين بعد ذلك من اليمانية في المشرق وفي العرب، ولما تلاقى حيش على وحيش معاوية في وقعة صفين كانت القبيلة العربية الواحدة يقاتل في كلا الحيشين. قال ابن الأثير «وسأل علي عن القبائل من أهل الشام فعرف مواقفهم، فقال للأزد اكفونا الأزد وقال لحثعم اكفونا حثعم. وأمر كل قبيلة أن تكفي أختها من الشام، إلا أن تكون قبيلة ليس منها بالشام أحد فيصرفها إلى قبيلة أخرى من الشام ليس بالعراق منهم أحد مثل بحينة لم يكن بالشام منهم إلا القليل صرفهم إلى لخم.»

فالمزاج بين اليمانية والمصرية لم يكن براعاً على فخر النبوة، ولا على فخر الخلافة عند بداءة أمره، وإنما كان براعاً بين سلاحين أو بين حيشين متناقسين في مكر واحد، عدا ما هالك من النزاع بين الفكرين، وسحق نرى في عصر - وهي كل عصر - أمثال هذا التنافس بين الأسحة كلما جبح ولاه الأمر إلى فريق منهم دون فريق، وقد رأينا هذا التنافس بين سلاح البر وسلاح البحر وسلاح الهواء في الجمهوريه الفصيه وكلهم من حس واحد أو هومية واحدة لأن ولاه الأمر هناك يؤثر على سلاحاً على سلاح في الحصار بينهم على اسعد الذي يستندون إليه.

لقد كانت عصبية النسب عنواناً من عناوين الخلاف بين قبائل اليمن وقبائل مصر في دولة بنى أمية بالشام، ولكن هذه العصبية لم تكن لازمة كل اللزوم لإثارة الخلاف حينما أريد لغرض من أغراض السياسة، وقد حدث مثله بين قبائل اليمن، وحدث مثله بين قبائل مصر على حسب الطوارئ والمساومات، ولو كان الجند كلهم من قبيلة واحدة وأراد ولي الأمر أن يثير المنافسة بينهم؛ لما أعياه ذلك كما حدث في هذا العصر بين الشعوب الأمريكية في الجنوب على ما قدمناه.

ومعاوية كان يريد النزاع بين اليمانية والمصرية، ولم تكن له من خطة ثابتة فيه غير التفرقة بينهم تارة إلى هؤلاء وتارة إلى هؤلاء، وقد كان هو نفسه من المصريين ولكنه كان يبدو في بعض الأحيان كأنه من أبناء اليمن عدو لأبناء مصر، وطابت له هذه السياسة فاستمر^(٢١) مرعاهم الوخيم حتى كانت عقباها ضياع الدولة الأموية كلها بعد جيلين

وأبرع ما برع فيه من أنواع الدهاء إلقاء الشبهة بين خصومه في زمن كنت فيه هذه الشبهات من أيسر الأمور؛ لكثرة التقلب والتحولات في الدول والممالك بين أنصار اليوم وخصوم الأمس، وأنصار الأمس وخصوم اليوم. كان إذا أراد أن يستميل أحد البطارقة من دولة الروم يستعصى عليه كتب له رسالة مودة وثناء وأنعمها مع رسول يحمل إليه الهدايا وأرشا كأنها جواب على طلب منه يساوم فيه على المصالحة والغدر برؤسائه من دولة الروم، ويخرج الرسول العربي من طريق متباعد كأنه يتعمد الروعان من العيون والحواسيس، فإذا اعتقله الروم ولا بد أن يعتقلوه لأنه يتعرض للاعتقال ويسعى إليه وتخت الشبهة على الطريق لمقصود، وتعدر الاطمئنان إليه من قومه بعد ذلك، وعزلوه وأبعدوه إن لم ينكلوا به أشد النكال.

وقد احتال بمثل هذه الحملة على قيس بن سعد حتى أوقع الريبة منه في نفس الإمام وساعدته الحوادث على خلق هذه الريبة كما أحمدنا ذلك في كتابنا عن عبقرية الإمام «عشبهاته لم تكن بالقليلة ولا بالصغيرة» قيس بن سعد لم يدخل مصر إلا بعد أن مر بجماعة من حزب معاوية، فأجازوه ولم يحاربوه وهو في سبعة نفر لا بحمويه من بطشهم فحسبوه حين أجازوه من العثمانيين

(٢١) سمر: استمر للصيف الطعام. اسطوخ

النهاريين إلى مصر من دوة عى فى الحجار، ولما بيع المصريون علياً بقى
العثمانيون لا يبيعون ولا يتوبون وقالوا لسعد أمهلاً حتى يتبين لنا الأمر،
فأمهلهم وتركهم وادعين حيث طاب لهم المقام بحوار الإسكندرية.. وأراد الإمام
أن يستوثق من الخصومة بين قيس ومعاوية، فأمر نيساً أن يحارب المتخلفين عن
البيعة فلم يفعل، وكتب إليه يقول: إنا متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوك وهم الآن
معتزلون، والرأى تركهم..»

وتعاطفت بعد ذلك الطيور فى زمن صدقت فيه أكثر هذه الطيور. فأما معاوية
فلم يكرهه ^(٢٥) الظن ولا الشبه بالظن؛ لأنه يعلم المنفعة التى يعطيها
والمنفعة التى يريد أعماله من أجلها، وأما الإمام فلم تكن له عصمة من الظن
غير الحيلة وغير التجربة، ولم تكن للتجربة سابقة مقطوع بها بل كانت كلها
مما سينجلي عنه مستقبل مجهول.

هذه الحيلة - حيلة الشبهة - كانت من أنجح الحيل فى سياسة معاوية مع
خصومه، لأنه زمن الشبهات وهى كثيرة فيما ابتلاه أولئك الخصوم، وقد نجحت
ونجحت ^(٢٦) بفضل واحد وأحد أحدهما فضل التدبير والآخر فضل الحوادث
بغير تدبير.

وحيلة أخرى لا تجزم بها، ولكنها تشير إليها فى مكانها مما رواه الرواة عن
الوسائل «الخفية» التى توصل بها معاوية للعلبة على خصومه ومناقضيه،
وحسبت يومئذ من صروب دهائه، أو من ضروب كيد وهو مرادف عند عامة
القوم لمعنى الدهاء.

ومات الحسن ومات مالك بن الأشتر الذى ولاه الإمام مصر بعد عزل قيس،
ومات عبدالرحمن بن خالد بن الوليد وعوخلوا جميعاً بغير علة ظاهرة، فسبق إلى
الناس ظن كاليقين أنها عيلة مدبرة، وأن صاحب العيلة من كان له دفع عاجل
بتدبيرها، وهو معاوية.

ونقل عن ابن العاص بعد موت الأشتر أنه قال: «إن لله جنوداً من عسل».
وكان موت الأشتر بعد شربة من العسل لم تصبه غير ساعات

(٢٥) يكرهه: كره الأمر الرجل اشتد عليه ومسايقه

(٢٦) نجحت: نجح الدواء فى العين، والوعظ فى السامعين أثر وأفاد

ونقل الخبر عن دس السم للحسن رضوان الله عليه مؤرخ من الأمويين هو أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني المشهور قال في كتابه مقاتل الطالبين: «أرسل معاوية إلى ابنة الأشعث، ابني مزوجك بيريد ابني علي أن تسمى لحسن بن علي، وبعث إليها بمائة ألف درهم فقبلت وسمت الحسن فسوغها^(٢٧) المال ولم يزوجها من يريد، فخلع عليها رجس من أهل طلحة فأولدها، فكان إذا رقع بينهم وبين بطون قريش كلام عيروهم وقالوا: يا بني هسمة الأزواج».

وقال ابن الكلبي عن أبيه هي سبب موت الأشتر «إمه لما سار الأشتر إلى مصر أخذ في طريق الحجان، فقدم المدينة فحماه مولى بثمان بن عفان يقال له نافع وأظهر له الولد وقال له أنا مولى عمر بن الخطاب، فأدباه الأشتر وقريه ووثق به وولاه أمره، فلم يزل معه إلى عين شمس، فلما وصل إلى عين شمس تلقاه أهل مصر بالهدايا وأسقاه نافع المسكور العسل فمات منه... وقال ابن سعد إنه سم بالعريش، وقال الصوري، صوايه القلزم...»

وحاء في أخبار سنة ثمان وثلاثين لابن الأثير «خرج الأشتر يتجهز إلى مصر واب معاوية عيونه بذلك معظم عليه وكان قد طمع في مصر فعلم أن الأشتر إن صبا كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر فبعث معاوية إلى المقدم على أهل خراج بالقلزم وقال له إن الأشتر قد ولي مصر، فمن كفيته لم آخذ منك خراجاً ما بقيت وبقيت مخرج الحايصات وهي رواية الطبري. الحايستار - حتى أتى الشام وأقام به، وخرج الأشتر من العراق إلى مصر، فلما انتهى إلى القلزم وأقام به استسببه ذلك الرجل فعرض عليه النروب فقبل عنده، فأتاه بطعام، فلما أكل أتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سم، فسقاه إياه، فلما شربها مات... وقدم معاوية خطيباً ثم قال: «أما بعد. فإنه كانت على يمينان فقطعت إحداهما بصفين - يعني عمار بن ياسر - وقصعت الأخرى اليوم - يعني الأشتر».

واتفق ابن الأثير والطبري على رواية واحدة هي الجملة عن موت عبدالرحمن ابن خالد بن الوليد «كان سبب موته - كما جاء في ابن الأثير - أنه كان قد

(٢٧) سوغها: سوغه من أصفاه، حطه مميئاً له

عظم شأنه عند أهل الشام، ومالوا إليه لما عندهم من آثار أبيه، ولعائته في بلاد الروم ولشدة بأسه، فخافه معاوية وخشى منه، وأمر ابن أثال النصراني أن يحال في قتله. وصنع له أن يضع عنه خراجه ما عاش، وأن يوليه خراج حمص، فلما قدم عبدالرحمن من الروم دس له ابن أثال شربة مسمومة مع بعض معاليكه فشربها فمات بحمص فومى له معاوية بما ضمن به، وقدم خالد بن عبدالرحمن المدينة فجلس يوماً إلى عروة بن الزبير، فقال له عروة: ما فعل ابن أثال؟ فقام من عنده وسار إلى حمص فقتل ابن أثال فحمص إلى معاوية فحبسه أياماً ثم غرمه دينه، ورجع خالد إلى المدينة فأتى عروة، فقال: عروة: ما فعل ابن أثال؟ فقال قد كفيتك ابن أثال ولكن ما فعل ابن جرهم؟ يعني قاتل الزبير فسكت عروة^(٢٨) وسبق الطبري فقال «ذكر جرير وغيره أن رجلاً يقال له ابن أثال - وكان رئيس الائمة - سقاها شربة فيها سم فمات، وزعم بعضهم أن ذلك من أمر معاوية له في ذلك ولا يصح، ورثاه بعضهم فقال:

أبوك الذي قاد الحيوش مغرباً إلى الروم لما أعطت الخرج فارس
وكم من فتى نبهته بعد هجمة يقرع لجام وهو أكنع^(٢٩) ناعس
وما يستوى الصغار صف لخالد وصف عليه من دمشق للبراس^(٣٠)

وقد ذكر أن خالد بن عبدالرحمن من خاند قدم المدينة، فقال عروة بن الزبير «ما فعل ابن أثال؟» فسكت. ثم رجع إلى حمص فثار على ابن أثال بقتله، فقال «قد كفيتك أيام، ولكن ما فعل ابن جرهم؟» فسكت عروة، ومحمد بن مسلمة في قول.

وشاعت انشوائع بدتل ذلك عن آخرين من أعداء معاوية ومخافته، فبلى للناس في تصديقها أن هؤلاء الأعداء ماتوا بغير علة موصوفة في الموعد الذي سفيه معاوية وتترتب عليه سياسته التي كان يرجئها إلى مواعدها فالحسن يموت قبل بيعة يريد، كي لا يخرج معاوية على شرطه المكتوب للحسن، ومالك بن الأشتر يموت على أبواب مصر، وعبدالرحمن بن خالد يموت وهو في أوج سمعته بين قوم أعجبوا من قبله بأبيه، ويوشك أن يجتمع حوله المناقمون من أهل الشام وأهل انكوبة والحجاز. وكله مما يذكر ولا يعجل بغيره ولكنه لا يقوم عليه دليل

(٢٨) أكنع الاكنع من رجعت أصابعه إلى كفه

(٢٩) البراس، البرس بضم الباء والميم، راء، خاف منه السهم أيام الصيف يقتل به النهار

قاطع وأضعف ما في هذه الروايات تكرار المكافأة بإسقاط الخراج وهي مكافأة لا توافق جبايات الغدر والغيلة لأنها تسجد في كل موعد خراج، ولا يزال السؤال عن سبب إسقاطه من جديد، بين العمال وأصحاب الأمر، حتى ينكشف المكيدة كلها مع الأيام، وما كان معاوية يعاقر عن المكافأة على دس السم للأعداء بيدس المال المعجل والمؤجر في الخفاء، فلا يسمع لمؤرّع أن يقبل هذه التهم جائزاً ولا أن يرقصها حارماً، ولكن الشبهات والأقاويل وحدها تحدثنا بالشئ الكثير عن ظنون الناس بمعاوية ووسائله إلى قضاء ما يهويه.

وبحسب أدث في هذا الفصل قد ألمعنا بأقائين الدهاء التي نسبت إلى رأس الدولة الأموية، ويتبين منها جميعاً أن دهاءه من قبيل الدهاء الذي يعول على قضاء المصالح وتبادل المنافع، ويتساوى فيه دهاء الطرفين أو يكون الرجحان من قبح الطرف الآخر. فليس دهاء معاوية من قبيل ذلك الدهاء الذي يسوق الأعوان سوقاً إلى خدمة مقاصده بسلطان القدرة العقلية الخارقة وغلبة الإقناع لا برهان فيه على الحقيقة، ولكنه ضرب من «التنويم المغناطيسي» تعمل فيه المشيختان بمشيئة وحدة.

وإنما استطاع معاوية أن يستهوي الناس إليه بقضاء المصالح لقيامه على ولاية الشام عشرين سنة باستنثاره بأقطارها جميعاً على أيام عثمان بن عفان، واحتجازه ما شاء من أموالها وخيراتهما وولاء أعوانها بغير رقبة عليه بعد أيام الفاروق..

فالرحل على نصيب متوسط من العقل يملأ له طبع بوطور على الأناة لم تتعطله الحوادث قط كما تعجت مافسيه في الحجار والعراق، وكان ذلك النصيب حسبه من العدة في ذلك الدرع الذي لا سواء فيه بين المصاعب والفقبات من الحابسين.

ولو أنه نورن بينه وبين زملائه على سعة الدهاء لكان آخر الأربعة صعباً أو لم يكن على اليقين أو الأربعة قبح عمرو بن العاص على الخصوص، فإن الفارق بينهما كالغارق بين العبقورية والبرية^(٣٠) أو بين العقل المشيع بالقوة والحيوية والعقل الذي قصاراه من الرأي أن يحذر ويتريص ويتحجب حيثما كان

(٣٠) البرية المراه والعدة على الشئ.

كان دهاء عمرو سلاح هجوم ودفاع، وكان دهاء معاوية سلاح دفاع دائم على أحسن الأحوال، وكان هو يجهل موازين المرجح بين الدهاءين، ويحسب أن اتقاء العواقب هو كل ما يطلبه الدهاية من دهائه، كأنما الدهاء سلاح يعمل عمل الدرع، ولا يعمل عمل السيف أو السهم في وقت من الأوقات..

سأل معاوية عمرو بن العاص ما بلغ من عقلك؟ قال ما دخلت في شيء قط إلا خرجت منه. قال معاوية لكنني ما دخلت في شيء قط وأردت الخروج منه. ولم يكن عمرو ليقتحم المخاطر على الرغم منه ثم يبحث عن مخارج النجاة منها، ولكنه يقتحم الخطر ويقول غير مرة «عليكم بكل مزلة»^(٣١) مهلكة... لأنه كان على ثقة بدهائه كلما تاب إليه، وعلى وفاء لطبيعة الإقدام والافتحام التي تقتن بالعبقرية ودوافع القوة والحيوية، وليس من عزم الأمور دهاء لا يدفع بصاحبه في العصار، ولا يرجي من نفعه قط إلا أنه لحام ولا نكران - بعد - لدهاء معاوية على هذا التقدير، وإنما قصاراه من هذا التقدير أنه لم يصيغ الفرصة التي سبحت له، وأنه صبر في انتظارها وأطال الصبر غير متعجل لها قبل أوانها. وقد كان ذلك حسبه فيما توخاه..

(٣١) مزلة أرض لا تثبت عليها الدم.

الحل

اشتهر معاوية بعد الدهاء بالحلم، وأجمع مؤرخوه من مادحيه على وصفه بهاتين الصفتين. وقد أفرد ابن أبي الدنيا وأبو بكر بن عاصم تصنيفاً في حلمه، وقال قبيصة ابن حابر «صحبت معاوية فما رأيت رجلاً أثقل حتماً ولا أبطأ جهلاً ولا أبعد أناة منه» وردد المؤرخون كلمة قبيصة هذه ورددوا عليها كلمات بمعناه لغيره من عثرائه ورواة أخباره.

ولم يعثر معاوية بصفة كما كان يفخر بحلمه. كان يفاخر خاصته بالدهاء بينه وبينهم، ولكنه لم يفخر قط بالدهاء علانية كما كان يفخر بالحلم والأناة، ولا غراية في ذلك من جميع لوجوه، فما من رجل عى نصيب من الدهاء يعلن دهاءه ويفخر به وهو يستطيع أن يخفيه ويموهه بالصيحة والصراحة، ومن صنع ذلك فهو كالصائد الذي يكشف حيالته للقبيصة وهي خليفة ألا تقع فيه إذا انكشفت لعينها

ووجه آخر من وجوه الحذر بالحلم وتذكير الناس به عند معاوية أنه كان حريصاً على التحجب إلى الناس، لأنه ينتزع سلطانه ويعلم أن الناس لا يطوون على الحب لمن ينتزع السلطان. إن لم يكن نخوة وأنفة فحسداً وغيرة، أو إغراضاً عن العاصب إلى من هو أولى بالسلطان في رأى أصحاب هذا الرأى وإقبالاً على مسنطه عندهم بغير مزاج.

سئر «أى أساس أحب إليك» قال أشدهم تحبباً لى إلى الناس، وغشى عن القول أن الصفح عن المسىء مع القدرة على البطش به من أقرب للوسطى إلى كسب ولائه وكسب ولاء غيره ممن يسمع بالخير ويحده، ولم يكن معاوية ولا شيعته يقصرون في إذاعة كل خبر فيه مآثره من مآثر العفو والأناة والبر بكل مسيء من أولئك الذين كانوا يطاولون عيه بالمشاءة في أول عهده بالملك على الخصوص، ولم يكن عند هؤلاء المسيئين بالليل.

كان يقول: إني لأرفع نفسي أن يكون ذنب أعظم من عفوى، وجهل أكبر من حلمي، وعورة لا أوارئها بسترى، وإساءة أكثر من إحساسى. وكان يقول في مجالسه «لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت»، وسأله بعضهم كيف ذلك؟ فقال «كنت إذا شذوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها».

وخطب يوماً فقال «والله لا أحسن السيف على من لا سيف به، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به العائن بلسانه فقد جعلت ذلك دبر^(١) أدنى وبحت قدمي».

وحدّ الحلم عنده ألا يكون في العدوان والتطاؤل مساس بملكه وسلطانه. أعظم له رجز وأكثر، فقليل له أن يحلم عن هذا؟ فقال: إني لا أحور بين الناس وبين أسفنتهم^(٢) ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا».

ووجه آخر غير هذه الوجوه كان من دواعي التلّج عند معاوية بفصيلة الحلم قس غيرها من الفضائل التي كان في وسعه أن يلهج بها كالغصاء والتدبير وعلو الهمة وما إلى ذلك من المناقب التي يسلم له بها الأعداء ولا يحسدوها كثير من الخصوم.

كان الحلم دعاية سياسية في خصومته مع علي بن أبي طالب بما اشتهر به من مضائل الشجاعة والأمانة والتقوى.

كان الحلم صفة من أعز صفات الرئاسة عند الأمة العربية، وما تحسبها عالت قط بمحمدة من محامد الرئاسة معالاتها بالحلم وقرينه «الحكمة».

وربما مدحوا الكرم والشجاعة فأكثرُوا في مدحهما إكثارهم في القور المعاد من قبيل تحصين الحاصص.

فأما الحلم فقد كانوا يغالبون في الثناء عليه لأنه محمودة يطلبونها في الرؤساء ولا تحري محررى الصفات المبذولة لسائر المتصفين، ولما اختلف على ومعاوية لم يكن أحد يكر على على شجاعته وتقواه وسابقتة إلى الإسلام وقرابته من رسول الله فإذا شاء معارفة أن يوازيه بصفة من صفات الرئاسة، فذلك هي الحلم دون غيره، ودعواه فيها أنه هو صاحب الرأي والحلم والحزم، وأن علياً صاحب الشجاعة والصلاح، وقد شاعت الموازنة بينهما بهذا المعنى على ألسنة الدعاة من حزب معاوية، وكان أن يقبلها الباقون لعلى من حربه لا شدة به في الحق لدى لا متبوية فيه، وأمسك معاوية على كل لجاجة في أمر التقوى والصلاح ليقول كلما بافس عيباً وابنه الحسن إن لم أكن خيركم فأنا خيركم لديكم.

فالحلم عند معاوية وسيلة من وسائل السحب إلى الناس، وسيلة من وسائل الدعاية السياسية يعرض بها حجته ولا يستصيع أن يفخر بصفة غيرها في مقام امفاصلة بيته وبين الرجل الذي سلم له المصصف ولسكاير بفصيله الشجاعه وفصيله التقوى.

(١) دبر: الدبر من كل شيء معبه ومؤخره.

لا جرم كان في أخبار حلمه، غراض ومحاوذة للمألوف من أمثاله، وكان من أهله من يثور لإفراطه هذا، ويحس الهوان في عرته لما يحتمله صاحب الأمر كله في دولتهم من الجرأة عليه وعليهم، وكان يريد - ابنه وولي عهده - أشد هولاء الثاقبين سخطاً على أبيه، يقول له كلما راحه «أخاف أن يعد لك منك صعباً وحبباً»... فيقول له «أى بنى! إنه لا يكون مع انجم بدامة ولا مدمة، مامح لشأتك ودغنى ورأى».

ومن يعزى غضب يزيد من ذلك الحلم «المعروط» إلى سورة^(٢) الشباب وحب الاستطالة^(٣) بالعزة والسؤدد على عادة أترابه وأنداده، ولكن الرأي بين آل بيته «المحتكين» أنه كان يبالغ في احتعار الأذى والصبر على المساءة، وكان راح في حنكة عبد الملك بن مروان يسمى ذلك منه دهاناً كما قال في بعض خطبه «ما أنا بالخليفة المستضعف يحيى عثمان وما أنا بالخليفة المدهش يعنى معاوية - وما أنا بالخليفة المأمون - يعنى يزيد».

وبما يدل على أن الفخر بالحلم دخل في رعاية الخصومة بين معاوية وعلى خاصة، أسما لا نسمع به بعد تأسيس لدولة ولا يفخر به أحد من الأمويين غير الفرع المؤسس لدولتهم في إبان النزاع الأول على الخلافة فالمعلوم أن بنى أمية قرعان فرع حرب، وفرع أبى العاص، وإلى حرب ينتمي أبو سفيان وابنه معاوية، وإلى أبى العاص ينتمي مروان بن الحكم ومن خلفه من ذريته، وعلى مقدمتهم ابنه عبد الملك وحفيده سليمان بن عبد الملك

فالمفارقة بالحلم إنما كانت تجري على سان معاوية، ولم تجر بعده على لسان امروايين حين تأسست الدولة الأموية واستعصى القائلون بها عن مقابلة قصائد على بن أبى طالب بفضائل «سياسية» يرجحون بها أنفسهم في ميران الخصومة كان معاوية يقول إذا لم يكن الأموي حليماً لقد هارق أصله وخالف آبائه. وكان يقول «يا بنى أمية! هارقوا قريشاً بالحلم. هو الله لقد كنت ألقى الرجل في الجاهلية فيوسعني شتماً وأوسع حليماً فأرحع وهو لي صديق، إن استنجدته أجدنى وأنور به فيثور مخي، وما وضع الحلم عن شريف شرفه ولا راده إلا كرمًا»

(٢) سورة الفتح، الصدة والشدة (٣) الاستطالة اسمطال عنى القوم رفع نفسه عليهم وغيبهم وقهرهم.

وكان المتقربون إليه يدكرونه حلم أبي سفيان إذا أنكروا منه سورة البقرة وانغصب وقيل له بعد مقتل حجر بن عدي: أين عاد عنكم حلم أبي سفيان؟ فكان يقول: حيث غاب عنى حلماء قومي وحملتني ابن سمية فاحتعلت. وقال بلسيدة عائشة حين سألته مثل هذا السؤال: لم يكن معي رشيد.

ولاشك أن معاوية قد أقام فخره بالحلم على سمعة قديمة في بيته بين بيوت بني أمية^(٤) لأن هذا الفخر لا يخلق من يوم وليلة في البلاد العربية التي تذكر وراثاتها وتعيد لها ولا تخاطب بها من يحفلها، ومن المشهور أن حرب بن أمية أصحح بين قريش وهوازن في حرب الفجر الثانية بعد اقتناص يسير، وأن ابنه سفيان كان يأنى ولا يهجم في خصومات الجاهلية وخصومات الإسلام، ولا يمنع مع هذا كله أن يكون المخرب بالحلم من دعايقه السياسية عند تأسيس الدولة والحاجة إليه في المعاضلة بين المتنازعين بمواقب الحكم والرئاسة وقد سكت عنه الأمويون على عهد القرن الآخر منهم وهو فرع المروانية - لأنهم لم يحتاجوا إليه في منازعاتهم، بل كان منهم من يفخر بالفتك ويسرع إلى الغضب ويرهب المخالفين له بسرعة البادرة إليه.

والوقائع - بعد - أصدق من إطراء المادح وغمز القادح، فإنها قد تمتزج بالكذب عمدا أو على غير عمد، ولكنها في كثير من الأحوال تنقص كلام قائلها إذا عرست على التصحيح^(٥) والتحليل فيسوقها للمدح وهي منطوية على دخيلة تبطل مديحه المقصود، أو يسوقها للقدح وما تنطوي عليه آية من آيات الثناء والامديح.

والوقائع التي رويت عن حلم معاوية متواترة متكررة، تتفق فيها الكلمات أحببنا ويختلف فيها القائلون والرواة، أو يتفق فيها هؤلاء جميعاً بغير اختلاف كبير، وهكذا معظم الوقائع التي رويت عن أعلام ذلك الجيل وما بعده، فلاند فيها من حساب للمبالغة وحساب لترجيح والتصحيح بالمقاربة والمصاهة^(٦).

وليمت كل هذه الوقائع - مع ذلك - بصالحة للاستدلال بها على حلم معاوية ولو بعد ثبوتها باختلاف أو بغير اختلاف، فمنها ما تعرض فيه للإساءة مستدعياً لها مستعفاً لها في مجال التبسط

(٤) للتصحيح، محض قلاع السوء. خلاصه من كل عيب. (٥) المصاهة الموازية والتقارب

والمزاح، والعالم الإسلامي لم يتعود بعد طعيان الملك، ولم يتعود ملوكه أن يسوموا العباس الصير على ما يكرهون ولا يترقبوا منهم رد انكلام بمثله في كل مقام قدم جاريه بن قدامة السعدي عليه فقال: من أنت؟ قال: حارية بن قدامة. قال: وما عسيت أن تكون؟ هل أنت إلا نحلة؟ قال لا قد فإنما شبهتني بها حامية اللسعة حلوه البصاق ووالله ما معاوية إلا كلبة تعاوي^(٦) الكلاب وما أميه إلا تصغيراً^(٧)

ورويت هذه القصة على روايه أخرى، فقبل: إن معاوية يادبه قاتلاً «أنت الساعى مع علي بن أبي طالب والموقد النار في شعر - جمع شعله - نجوس قري عريية لتسفع دماءهم؟ فقال حارية: يا معاوية، دع عنك علياً وما أبغضنا عبداً منذ أحببناه ولا عشتناه منذ صحبناه. فقال له معاوية ويحك يا جارية ما كان أموتك على أهلك إذ سمرك حارية، لا أم بك! قال حارية أم ما ولدني إن قوائم السيوف التي لهنالك بها بصعين هي أيدينا إنك لم تملكننا قسرة ولم تفتحننا عبوة، ولكن أعطيتنا عهداً ومواثيق فإن وفيت لنا وهيبا وإن ترغب إلى غير ذلك فقد تركنا وراءنا رجالاً مداناً^(٨) وأذرعاً شداداً، وأسنة حداداً فإن بسطت إلينا فترا من عذر دلفنا إليك بباع من ختر - قال معاوية لا أكثر الله هي الناس من أمثالك.

وما بطن معاوية كان محاطباً بذلك الخطاب رجلاً يوصف في عصرنا هذا بأنه من «أكلى النار» ثم لا يترقب منه جواب كحواله، ولعله كان يرصيه أن يسمع منه تسليماً واستكافة فيطمئن إلى غلبته ورسوخ سلطانه ولكنه - ولا ريب - لم يغب عن رده أن جارية أهل لأن يسمعه ما سمع، وأن يطرفه بتلك الطرافة اللاذعة التي لا يأبأها كثير من الناس، وهي طرافة الجواب السريع المترقع ممن يحسن رد الكلام بعقله في هذا المقام..

ومن الجواب المستدعي - أو المستدر - قول خريم بن قانك وقد دخل على معاوية مشمراً منزراً، فقال له: «لو كانت هدى لساكن لاصراًة»، وكان معاوية عظيم الألتين يهجي فيقال فيه إنه الجاحظ العين العظيم الحاوية^(٩)، فما عثم^(١٠) خريم أن أحابه قاتلاً «هي مثل عجيرتك»^(١١) يا أمير المؤمنين!.

(٦) تعاوي: الكلاب، صابحها، وعري مثلها (٧) مداد: جمع مديد أى طوي.

(٨) المناوية، الأسعد (٩) عثم: يقال: ما عثم أن فعل كذا أى ما لبث وما مضى

(١٠) العجيرة العجز: هو ما بين الوركين، والمؤخرة

وأشبه بهذا لمقام حوارهم مع الرزقاء بسبب عدوى خطيئة صغين حين ذكرت في مجلسه بعد سنوات فأرسل إليها يستدعيها فقالت لرسول: إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار لي فإني لا أذهب، فلما شدوا عليها في الذهاب دخلت المجلس وفيه عتبة بن أبي سفيان، والوليد، وسعيد بن العاص، وعمرو بن العاص فهش لها ورحب بها، ثم سألها: أتدريين فيم بعثت إليك؟

قالت: وأني لي بعلم ما لم أعلم، لا يعلم الغيب إلا الله. فسكت همهمة ثم قال: أنت الراكبة الجمل الأحمر في صفين تحضين الناس بين الصفين على القتال؟

قالت: نعم.

قال: فما حملك على ذلك؟

قالت: يا أمير المؤمنين مات الرأس وبتر الذنب، وإن يعود ما ذهب، والذهب هو غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر. قال: صدقت. أتحفظين كلامك يومئذ؟

قالت: لا والله، أنسيته.

قال لكي أحفظه، وله أبوك حين تقولين «أيها الناس ارجعوا وارجعوا إليكم صبحتم في فتنه، عشيتكم جلاهب، لطم، وجارت بكم عن فصد المحجة، فيالها فتنه عمياء، صماء، بكماء، لا تسمع لناعقها، ولا تسلس لقائدها، إن المصباح لا بضئ في الشمس، والكواكب لا تدير مع القمر ولا يقطع الحديد إلا الحديد» واسترسل في قور الرواة يعيد عليها كلامها إلى أن قال: والله يا رزقاء، لقد شركت علياً في كل دم سفكه.

قالت: أحسن الله بشارتك وأدام سلامتك، فمثلك بشر يحير ورسر جليسه.

قال: أويسرك ذلك؟

قالت: نعم.

قال معاوية والله لو فارقكم بعد مربه أحب إلي من حيكم في حياته، أذكرى حاجتك.

قالت: يا أمير المؤمنين آليت على نفسي لا أسأل أميراً أعبت عليه أبداً ولكنه على هذا أجزل لها العطاء وأرضاهما.

وجاءته بكاراة الهلالية بالمدينة، وقد أسست وعشى^(١١) بصرها، فسلمت وجلست، فرد عليها اسلام وقال كيف أنت يا خالة؟
فالت، بخير يا أمير المؤمنين قال: عيرك الدهر، قالت: كذلك هو ذو غير، ومن عاش كبير، ومن مات قير.

قال عمرو بن العاص هي والله القائلة يا أمير المؤمنين.
يا ريد دونك فاحتضر من دارنا سيفاً حساماً في التراب دفيناً
قد كب أسخره ليوم كريهة فاليوم أهرزه الزمان مصوناً
وقال مروان، هي والله القائلة يا أمير المؤمنين
أترى ابن هند للخلافة مالک هيات ذاك وإن أراد بعيس
منك نفسك في الخلاه ضلالة أغراك عمرو - للشقا - وسعيد
وقال سعيد بن العاص، هي والله العائلة
فاله أخر مدتي فتطاولت حتى رأيت من الزمان عجائباً
في كل يوم للزمان خطيبهم بين الجميع لأن أحمد عائباً
فالت بكاراة بيحتني كلابك يا أمير المؤمنين، وأنا والله قائلة ما قالوا،
لا أدفع ذلك يتكدي، وما خفي عليك مني أكثر، فامض لشأنك، فلا خير في العيش
بعد أمير المؤمنين.
فصحك معاوية وقال ليس يصعنا ذلك من برك اذكرى حاجتك، قالت: أما
الآن فلا.

ويتم لرواة روايتهم فيقولون إنه قصي حوائجها وردّها إلى بلدها.

• • •

ولا مخالفة للمعهود في اردلاف^(١٢) المردلفين لصاحب الأمر بالوقوع في
خصمه بمحضر من يكره ذلك من خاصة أهله فإن جاء المردلف بزلفاه فقد
رصى وأرصى، وإن أصيب كما أصاب فليست كل كلمة يرحيها^(١٣) المقي في
مجلس الأمير مستحقة من ذلك الأمير أن يشتريها بالثمن الذي يعينه ولا تصيقه
دولته في مطلعها وقد اردلف إليه الكثيرون فسلموا، و اردلف إليه غيرهم فأصيبوا
بحق لا يمتري^(١٤) فيه عريبان يؤمن بحق احواب كما يؤمن به سائر العرب،

(١٢) اردلف: دوتقرب

(١١) عشى بصرها: انظلم

(١٤) يمتري: يشك

(١٣) يرحيها: يرجي الشيء ورجاءه: يدفعه برفق

ولا منرى فيه مسلمان يؤمنان بالحق حيث كان، وأظهره رد العدوان هي غير داعية للعدوان.

كان عنده زيد بن عمر بن الخطاب، وأمه بنت علي أم كلثوم فقال بسر بن أرطاة من الإمام، فما أمهله زيد أن قام إليه فعلاه بالعصا وشج رأسه فلم يزد معاوية علي أن قال لزيد عمدت إلى شيخ عريش وسيد أهل الشام فصريته؟ ثم التفت إلى بسر فقال: تشتتم علياً علي رؤوس الناس وهو جده وابن الفاروق ثم تراه يصبر على ذلك؟

وكل أولئك يشبه أن يكون بسر بن أرطاة قاتل طفلين باليمن لعبيد الله بن عباس يقال من علي في حصرة معاوية، وزيد بن الفاروق لا يشبه أياه إن صبر على ثلث^(١٥) حده في حكاك حيث كان، ومعاوية يرضى عن سفاهة بسر أن مصت في سبيلها، ولكنه لا يبطئ بزيد أن عصب لحدته وأصاب لسقيه بجزيرة سفاهته، ولا تساوى تلك السفاهة أن يشتريها بالكمال الذي تعود عليه اللائنة فيه ولا تعود عليه منه زيادة في ملكه، وكل أولئك - كما أسلفنا - يشبه أن يكون، فلا يحسبه أحد في ذلك العصر من حلم معاوية، بل يحسبه من حين زيد إن لم يصنع ما صنع يابن أرطاة

وإن لأشبه بالصدق في حملة تلك الروايات أن معاوية كان يحب هذا الملق ويحب هذه الاستثارة^(١٦) لأنها تمتعه بسكرى الشدائد التي تخطاها بعد هوان الفاشية^(١٧)، وتريحه إلى لقاء خصومه وهم في كنفه يبطرون إليه في مستقر محاحه وظفره، ولا يصيروه بقولة يقوبونها لا تحور بينه وبين ملكه كما قال. وغير بعيد أنه كان يترك حلساءه يتحرشون بدوى اللبس من العلويين ليضحك مما يمالهم كما يفعل ذور السلطان في كل زمن وكل أمة، فربما كانت سخريتهم بالأنصار أمتع لهم من صد الخصوم، وقد يطلقون بعضهم على بعض، ليسخروا منهم جميعاً إن لم يكن لهم خصوم يعرضونهم للسخرية طائعين أو كارهين.

وقد اجتمع من سعال^(١٨) بني هاشم وخصومهم في مجلسه ما يعقد به سحر خاص في مآثورات الحور في كل مقام ويصح وقوعه في رأينا أنه لو حدث لما أمكن حدوثه على غير ذلك النمط الذي تناقله الرواة.

(١٦) الفاشية الداهية والقيامه

(١٥) ثلثه سبب وشتم

(١٧) سعال ساحل ملار صاحبه عارصه وبراءة وبأخرة وصنع مثل صبيغة.

أدس من دوى السلطان المحدث يعلمون هوان أقدرهم مع بنى هاشم وآل
البيى وصفوه قريش، ويلذ بهم أن يعموا بالسلطان وأن «يجقروا» تلك النعمة
حيثما وسعهم احتزارهم فى حصرة وليهم وعلى مسمع من السادة الاعلى الذين
غلبوا على ذلك السلطان، وأن ولى الأمر نفسه ليحب ذلك ولكنه يعلم أنه مركب غير
مأمور، وأن الموتورين إذا سمعوا ما يكرهون قردوه بمثله فما فى وسعه أن
يواجه العالم الإسلامى كل يوم شهيد من آل البيت فسبيله أن يصطنع المخالفة
لجلسائه وأن يحذرهم مخبة اللهو بهذه المنهاة، ولا أمان فيها من لس القوم
وأفتهم النى لم تحذهم قط فى مقام الماضرة والتحدى من زمن قديم فى
أصيب جلسائه فعليهم وزر عملهم، وليس لهم أن يطالبوه بالانقصاص لهم من
أمر قد اضاروه على خلاف رأيه، وإن سلم أولئك الجلساء مقد شفوا صدره من
أولئك الموتورين.

وتكاد القصص مع بنى هاشم فى مجلس معاوية تجرى كلها على وتيرة
واحدة رجل من آل البيت يدعى إلى المجلس أو يأتى إليه فى أمر من أموره فيعزى
به جليس من الحاشية يتحرش به ويستثدوه فيجاب بما هو أهله، وينفاضب
معاوية على الحليس فيلومه إذا بلغ الجدال والمجاد^(١٨) قصص المقال، وما نرى أن
الملهاة كلها كانت مدبرة لكى تنتهى إلى خاتمة أخطر من هذه الخاتمة وماذا
عليهم إذا استطال الموتورون بالمقال وهم يستطيلون بالسلطان؟

إلا أن حديثاً واحداً من أحاديث بنى هاشم يخالف هذا النمط ولا يستقيم مع
سائر هذه الأحاديث فلم يكن البادى به من جلساء معاوية، ولا من آل البيت
ويكن لبادئ به معاوية نفسه عى نحو لا يشبه طريقته المأثورة من النقية^(١٩)
ولعدارة، وليس فيه نفع له فى شأن من شئون الملك أو خاصة من خواص أمره
تستوجب ذلك الحديث

قيل إنه تحدث إلى ابن عباس فقال له بنى فى نفسى منكم لحزازات^(٢٠) يا بنى
هاشم وإنى لخلق أن أدرك منكم الثأر وأنقى العار. فإن دعاءنا ببلكم وظلامتنا
فيكم، فقال له ابن عباس. والله إن رمت ذلك يا معاوية لتثيرون عليك أسداً مخدرة

(١٨) المجال الكيد والمكر والجدال

(١٩) النقية: إظهار الموافقة وإظهار تقيدها

(٢٠) حرارات الحوازة ويقنع العاهة. وجع فى القلب من غيظ ومعه

وأما على مطرقة، لا يفتأها كثرة السلاح ولا تعضها نكاية الجراح، يصعرون
أسنانهم على عرائقهم ويصربون قدماً دماً من باوانهم
إلى أن قال في رواية الرواة: «فلتكربن مبهن بحيث أعددت ليلة الهرير للهرب قرسك،
وكان أكبر همك سلامة حشاشة نفسك، ولولا طعام من أهل الشام وقوك بأنفسهم
وبدلوا بوبك مهجهم. ورفعوا العصافير مستجيرين بها وعائدين بعصمتها لكنت شلوا
مطروحاً بالعراء. وما أقوى هذا لأصرفك عن عزيمتك، ولا لأريك عن سقوط نيتك.
وبكها انرحم تعطف عليك، والأراصر توجب صرف النصيحة إليك». فقال معاوية له
درك يابن عباس، ما تكشففت الأباام منك إلا عن سيف صقيل ورأى أصيل. والله لو لم
يلد بنو هاشم عيرك لما نقص عددهم ولو لم يكن لأملك سواك لكان الله قد كثرهم

• • •

وإن دواعي الشك في مثل هذا الحديث لكثيرة، لولا أن التلقيق فيه أعسر من أن
يتاح لكل راوية يصح الكلام على كل لسان، ولا يبالي أين مرضعه من القائل
والمجيب.

فإن كان معاوية قائلًا عن ذلك المقال لأحد من بني هاشم، فإنما يقوله
لعبدالله بن عباس دون غيره، فإنه حديث داهية يسير^(٢١) به عور داهية يقاربه
من بيت خصومه، وأنه مع ذلك قرين تجمعته أصرة انقراية بأر على، ولا تجمعته
بهم أصرة الموبة والمواقفة جد الموافقة على الوجهة وقد تخلى ابن عباس عن
ولاية ابن أبي طالب ووقعت بينهما الحفوة التي لم تصلحها حوادث الأيام بعد
ذلك ولا منافسة بين علي وأبياته في حياته ولا بعد مماته، وإنما المناقسة بينه
وبين أعمامه وبني عمومته، إنما المناقسة بين اثنين أحدهما ابن عم للنبي هو أبو
طالب، والآخر ابن عم للنبي هو العباس.

وأي فائدة كبرى كان يعيدها معاوية لو سمع من ابن عباس كلمة نفتح الباب
للتفرقة بينه وبين سائر لهاشميين العلويين؟ أي فائدة كان يعيدها لو رأى من
دهاء ابن عباس أنه يمهّد لنفسه عند السلطان الجديد ولا يزيد على التشقّع لعبيره
من سائر أهل البيت؟

إن عراية هذه القصة هي التي ترجحها ويصتف الشك فيها، فإنها إن وقعت
لبن مقع إلا على عرايتها.

(٢١) يسير عور - سير الحور وهو قناسة وامحص غوره يعرف مقداره، والأمر اختيره، والغور العمق

إنها غريبة من معاوية إلا أن تكون مقصودة لعبير ظاهره مع رجل له ظاهر وباطن يستطلع بهذه المعاحنه ولا يستطلع بعيريه، وقد يبدو منه ما تكشف به حليته لموقف بيعة وبين سافر بنى هاشم وكل بنى هاشم غير عبد الله بن عباس فطاهرهم وباطنهم لا يختلفان إذا سمعوا مثل ذلك المذير هذا أو تكون بعثة من بفئات الكظم تصق منه حيث يقدر الأمان مع رجل يخفى باللسان ما لا يصمره الجنان.

وأمثال هذه الردود الخشنة جميعاً لم تكن هي ذلك العصر مما يستكثر على مناسباته، وقد سمعها معاوية - أو سمعها حلساؤه معه - متوقعة مستثارة، ولم يتعود الناس يومئذ أبهه الملك وطاعة العبيد للسلطة، ولم يعود الأمير كذلك أن يسوم الناس سكوتاً في موضع القوي، وإعصاء في موضع الأنفة، وإنما كان الأمير خليفة يتشبه بالخلفاء الراشدين في حق الطاعة، ولم يعد أحد من هؤلاء الخلفاء أن يخاطب إنساناً بما يسوءه ثم يستكثر عليه أن يحبيه بمثل خطايه، فهذه «هرقلية» لم يتعودها الرعاة ولا الرعايا، ولم يكن هي طاقة معاوية أن يروض رعاياه عليها دفعة واحدة، فإذا تمهل فيها أونة بعد أونة مرئى يكون التمهيل يمثل ذلك الصبر على كره أو على اختيار.

ومن الوقائع التي رويت عنه وقد نزع يلتبس فيها الحلم ويطغ الغضب وطول الروية والآنسة، ومنها ما يتلقى فيه الإساءة أو الوعيد على البعد ويتسع له الوقت قبل الإجابة عنها بما يروى فيه النظر ويرتصيه.

عدا عبيد لمعاوية على أرض ابن الزبير فكتب إليه ابن الزبير «أما بعد يا معاوية، إن لم تصنع عبيدك من دخول أرضي وإلا كان لي ولك شأن» وقيل إن معاوية أطلع ابنه يزيد على كتاب ابن الزبير وسأله ما ترى؟ فقال له يزيد لتنفذ إليه حبساً أربه عده وآخره عندك بأثوك برأسه فقال بل عدى يابى خير من ذلك، وكتب إلى ابن الزبير

«وقفت على كتابك يا ابن حوارى» رسول الله ﷺ، وسأني والله ما ساءك، والدميا هية عدى نى حنب رضاك، وقد كتبت على نفسي رقيماً^(٢٢) بالأرض والعبيد وأشهدت على ما فيه، وينصف لأرض إلى أرضك والعبيد إلى عبدك والسلام»

(٢٢) حوارى: أحد أنصار المهدي.

(٢٣) رقيماً: كتاباً، ورقم الكتاب به كته

فجاءه الحوب من ابن الزبير يقول فيه «وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطلت
 الله بقاءه، فلا عدم الرأي الذي أحبه من قريش هذا المحل والسلام».
 وأطلع معاوية أبيه على الكتاب الثاني كما أطلعه على الكتاب الأول «أسعر»^(٦٤)
 وجهه، وأبوه يقول إذا رميت بهذا الداء هداوه بهذا الدواء
 ومن الإساءات ما لا خطر له^(٦٥) لأنه من غير ذي شأن كشأن ابن الزبير، ولكنه
 يغضب العري، لأنه يمس الحرمات كشبيب عبد الله بن حسان برملة بنت
 معاوية إذ قال:

رملٌ هل تذكرين يوم غزال إذ قطعنا مسيرنا بالتمنى
 إذ تهولين عسرك الله هل ش ساء وإن جل، سوف يسبك عني^(٦٦)
 فغضب يزيد وأغرى كعب بن جعيل بهجاء الأنصار فأبى، ودله على الأخطى
 فنظم قصيدته التي يقول منها

ذهبت قريش بالهكارم كلها واللؤم تحت عمام الأنصار
 وأوشكت أن تكون فتنة^(٦٧) إذ دخل النعمان بن بشير على معاوية مصحفاً وحسب
 عن رأسه وهو يقول له هل ترى يا معاوية لزماً؟ فقال بن كرمًا وخيراً، فما
 يالك؟ فأعاد عليه أبيات الأخطى وتوعده بأبيات يقول منها:

معاوي إلا تعطف الحق نعترف لحي الأزد مشدوداً عليها العمام
 أبشمت عبد الأرقام^(٦٨) صلة وماذا الذي يحدى عليك الأرقام
 مما لي ثأر دور قطع لسانه مدوك من يرضيه عنك الدراهم
 وتعم القصة بما قيل عن طيب معاوية للأخطى وتهديده بإياه بقطع لسانه لولا
 شفاعته يزيد الذي أغراه بالهزاء

وفي رواية من هذه الروايات الكثيرة أن التشبيب إنما كان بأخت معاوية ون
 يريد دخل على أبيه هذكر له قول عبدالرحمن بن حسان
 طار ليلى وبنت كالعجور ومثلث الثواء^(٦٩) هي جيرون
 فقال له^(٧٠) وما علينا يا بني من طول ليلة وحربه؟ أنعمه الله
 قال يزيد: وإنه ليقول:

فلذاك اغتربت بأشقام حتى ظن أهلي مرجعات الظنور

(٦٤) لستر أسفروجه هلال حسنا أشرق

(٦٥) الأرقام جمع أرقم وهو اخبت العيات والأرقام، حي من بنى ثعلب، (٦٦) الثراء الإقامة

فقال أبوه: وما علينا من ظن أهله؟

قال يزيد: وإنه ليقول

هي زهراء مثل لؤلؤة العر

قال معاوية صدق يا بني، هي كذلك.

قال يزيد: وإنه ليقول.

ثم خاصرتها إلى القبة الخصر

عن يساري إذا دخلت إليها

فصحك معاوية وقال: ولا كل ذلك. ثم حذر أبوه قائلاً: ليس يجب القتل في

هذا ولكننا نكفه بالصلة.

ورغم في بعض روايات القصصين أن معاوية أرس في طلب الشاعر وأبلغه أن هنداً

أخت رملة تعذب عليه لأنه لا يسويها بختها، وأراد بذلك أن يشب الشاعر بهد فيعلم

أساس أنه كاذب في كل ما نضم، وأنها أقاويل الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون.

والثابت من كل هذا الحديث بيت الأخطى في هجاء أنصار، وربما ثبت مثله

هجاء الأرافم قوم الأخطى من تعلب، فإذا كان قد دخل في الأمر تشييب بأخت

يزيد أو بعمته، فربما هون خطره غضب الأنصار وغضب المسلمين جميعاً أن

يهجو أنصار النبي شاعر من غير المسلمين، ولو أن المسألة خلصت من هذا الحرج،

لما جاز قتل الشاعر من حراء لغوه كما قال معاوية، فما كان سفك الدم لعثل هذا

القول بالأمر المستباح في صدر الإسلام وقد نصى بعد هذا لحيل أجيس على

سنة لملك العضوض^(٢٧) ولم يخطر للمهدي في دولة بني العباس أن يقتل بشاراً

وهو القائم في أبي جعفر المنصور

أيا جعفر ما طوى عيش بدائم

كأنك لم تسمع بقتل متوج

ولا سالم عما قليل يسالم

عظيم ولم تسمع بفتك الأعاحم

♦ ♦ ♦

بل هو الذي أفضح في هجاء المهدي وهجاء نساء بيته، وذهب يخطب

بالمهاجرة والتحريض بين بني أمية وبني العباس، وما استباح المهدي عقابه إلا

بتهمة الرندقة والإباحة، وما أمر إلا بأن يضرب صوب التلف ليقال في ذلك إنه

إنما أريد به الصرب قومات.

وهذا بشار وذلك عبيد الرحمن بن حسان

(٢٧) العضوض: الملك المعتصم الطام.

ففى وزن الرجال وتمحيص الأخلاق وفهم الطبيعة الإنسانية أى فهم الإنسان - لا جدوى من التعويض على ألفاظ الصفات، ولابد من الرجوع إلى الوقائع ومآلها من الأثر الطبيعي فى الضمير وما ينم عليه هذا الأثر من خلقه نفسية أو ملكة عقلية.

وهذه الوقائع التى رويت عن معاوية تبنى لب منه صفة لا شك فيها وهى حول الأناة وبطء العصب، وليست هى بالصفة التى ترادف الحلم كما يفهم لأول وهلة، إذ كثيراً ما يكون بطء لغضب شيئاً «سلبياً» يدل على متدبر الغضب طبعاً أو قلة الاستعداد له فى الخلقة، ولا تكون العزيمة أبداً «شيئاً سلبياً» قوامه غياب أثر من الآثار النفسية وكفى.

فليس معنى الشجاعة مثلاً تحرد الطبع من الشعور بالخوف: لأن الإنسان الذى يقدم على الخطر وهو لا يشعر به، يدفع اندفاع الجوار ولا فسر له فى اندفاع لا يكلف الغلبة على خوف يساوره فى ضميره

وليس معنى الكرم تجرد الطبع من الشعور بقيمة المال أو قيمة الممدحة العبدولة: لأن من يتصرف فى شيء لا قيمة له عبثاً، كمن يتصرف فى المراءى والهواء وما إليهما من «بذور العطاء».

وليس معنى العفة تجرد الطبع من الشعور بالشهوات: لأن من لا يشتهى لا يطلب ولا يقاوم الإغراء ولا تحسب له عفة.

وليس معنى الحلم تجرد الطبع من الشعور بالغضب: لأن الشحرد من هذا الشعور قد مأتى من بلادة فى الطبع وركود فى حركة النفس ومقابلة العوامل الطبيعية بما يناسبها من الانفعال

وإما الحلم أن يغضب الإنسان وأن يحكم عصبه بإرادته: إثارة لأمر يعوق الغضب فى قيم الأخلاق.

فمن الحلم أن يأنف الإنسان من الاستسلام لعصبه: لأنه يرتفع بكرامته بن تصيبيها إساءة العسى.

ومن الحلم أن يصفح الإنسان عن الإساءة: إثارة للحير وعطفاً على المسىء كما يعطف الأب الرحيم على الولد الجاهل بما يجسج فى حق أبيه

ومن الحلم أن يقمع الإنسان عصبه لأنه يملك زمام نفسه ويوارى بين العواقب
 فيختار أسلمها للناس عامة، وإن يكن أسلمها له على ذات شأنه وشئون ذويه
 ولا بد من استعرقه هنا بين الحلم إثارة للنفع القومي، وبين الحلم إثارة
 للسلامة وعملاً بطبيعة «الأنانية» وحب الذات.
 فليس من الحلم أن يصوب الضعيف فلا يرد اضربة بمثلها لأنه يعلم أنه
 سيتلقى أصعاقها ممن هو أقدر منه وأقوى على إبدائه، وإنما يقال عن هذا إنه
 جبن أو رضا من المعتدى عليه بأموال الثرى.
 ولا يكون الحلم أبداً عجزاً عن محاربة الغضب أو امتناعاً للشعور به، لأن الفضيلة
 لا تقوم على عجز أو امتناع، ولكنها تقوم على إرادة ملك الاختيار بين الخطتين.

وجملة القول في هذه الصفة أن الحلم هو الذي يملك الغضب ولا يملكه
 الغضب، وكلما اشتد الغضب واشتدت القدرة عليه كان ذلك أبقى عن الحلم وأدل
 عليه، وكلما ارتفع اسبب الذي من أجله يطلب الحلم على عصبه كان ذلك أرفع
 لقدره وأرجح لوزنه في ميزان الفضيلة، فمن يحسم الغضب حرصاً على منافع
 الناس أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب حرصاً على منفعه العاجلة أو الآجلة، ومن
 يحسم الغضب لأنه يشمس الناس بحبه وعطفه أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب:
 لأنه يحب نفسه ويقدم عليها على كل حب لغيره.
 ومن كلام حكماء العرب ويلغاثهم نستشف^(٢٨) فملنتهم لحقيقة هذه الفضيلة،
 فهي فضيلة العريد المختار المالك لزمام الأمور، كما قال ابن خليفة مولى قيس
 ابن ثعلبة يمدح قوماً من آل شيبان.

عليهم وقار الحلم حتى كأنما ويدهم من أجل هيبته كهل
 إن استحلوا لم يعزب^(٢٩) الحلم عنهم وإن آثروا أن يحلوا عظم الجهل
 أو كما قال النابغة الجعدي
 ولا خير في حلم إذا لم يكن له يواد^(٣٠) تحصى صفوه أن يكدر
 ولا خير في جهل إذا لم يكس له حلم متى ما أورد الأمر أضدرا

(٢٨) نستشف، استشف الشيء، نظر ما إلى ما وراءه، واستشف الكتاب تأمل ما فيه.

(٢٩) يعزب عذب الشيء بعد وجاب.

(٣٠) يواد، الباصرة، ما يدير من حدة الإنسان في المعصب.

ومن كلام الأحنف بن هيس - أحد مشاهيرهم بالحلم : «رب عيظ قد نحرعته مخافة ما هو أشد منه».

وكان من حلمه أنه يصفح عن المسيء وإن جن به أنذل ويقول «ما أحب أن لي ببصيص من أنذل حمر النعم»^(٢١).. فلما قيل له كيف وأنت أعر العرب؟ قال: «إن الناس يرون الحلم ذلاً»..

وهو القائل: «لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان»
وسأله: ما الحلم؟ فقال: «قول إن لم يكن فعل، وصمت إن ضر قول».

وروى العقد الفريد أن هشام بن عبد الملك سأل خالد بن صهوان بم بلغ فيكم الأحنف ما بلغ؟ فقال إن شئت أخبرتك سخة، وإن شئت يخليين، وإن شئت بثلاث.

قال: فما السخة؟

قال: كان أقوى الناس على نفسه.

ثم قال عن الخلتين إنه كان موقى السر ملقى بخير، وعن الثلاث إنه كان لا يجهل ولا يبغي ولا ييخل.

وأستاذ لأحنف في الحلم قيس بن عاصم المقرئ كان مشهوراً بالإقدام كشهرته بالحلم والإعصاء عن الدب كبيره وصغيره، وبلغ من حلمه أنه صفع عن ابن أخيه الذي هتن ابنه، وقد وثقه من ود أن يبطش به لساعته، فما راد على أن قال له مؤنباً: «بئس ما فعلت، نقصت عدوك، وخنت عشيرتك، وأسقطت مروءتك، وأشمت عدوك، وأسأت قومك» وأنت ابني كما نرحو لعطائم الأمور، ثم واسبى زوجته أم القليل وأجزل لها الدية من ماله، وحسم بذلك شراً مستطيراً في انقبيلة لا يجعله عنه أخطر من شر الثكل إلا الحلم الراجح، ولقب الكبير والنظر البعيد.

ويمر به مثل من الأمثلة بصالحة لتقويم الروايات ورونها بصدد الأخبار التي نقلها صاحب العقد الفريد عن الحكم والحلماء، ومنهم الأحنف ومعاوية.
فابن عبد ربه يسفر به أن الأحنف سئل من أحلم: أم أم معاوية؟ فقال: تالله

(٢١) النعم بمعنيين: المال الراعي ويقع على «وات نخف والظلم» وجر النعم أجودف.

ما رأيت أجهل منكم. إن معاوية يقدر فحطم وأما أحلم ولا أقدر، فكيف أعاس عليه أو أدانيه؟

فإذا سمع السامع المتعجل هذا فحزى أن يتقرر لديه رجحان معاوية في الحلم بشهادة الرجل الذي يصوب به العث في حلمه، وأي شهادة عسى أن تكون أصدق من هذه الشهادة؟

وما هي إلا معاودة لحظة في السؤال والجواب حتى يتقرر على خلاف ما تقدم أن السؤال كان لا يحتفل جواب غير ذلك الجواب، لو أنه سؤال ما كان يبغي أن يتوجه للأحيف ويترقب سائله أن يقول له بل أنا أحلم من معاوية. وقد كان الأحيف خاصة يرى من عرف الحلم أن يستصغره، وأن يقول عن نفسه كما نقل صاحب العقد قبل ذلك بسطر واحد لست حليماً ولكني أتحالم

ولو أن الأحيف قال برأيه ذاك اعتقاداً ولم يقر به تواضعاً أو تحالماً لكان على خطأ لا يخفى عند النظرة اليسيرة في أسباب تعصيله معاوية على نفسه. فما هي العدة التي كانت مطلوبة من الأحيف في مقامه؟ لقد كان يكفيه أن يقدر على كلمة لا يحز عنها أحد، وكان بكفيه أن يمسك تلك الكلمة فيكون أقوى الناس على نفسه كما وصفه خالد بن صهوان، وأما الملوك فالمطلوب منهم أعمال لا يقدر على عليها في كل وقت ولا مع كل أحد، إلا أن يكون المعصوم بالقدره طياشة حامحة تحيط ما تشاء بغير مبالاة، وليس قصارى الحلم أنه غور الطياش وغير الحبط الذي لا ينظر إلى عقباة

ويوزن الراوى في روايته هذه، فلا يحسن موقع الهوى فيما يشاع عن حلم معاوية، وبسر انتقال الإشاعة من قتل إلى قاتل ومن باهر إلى باقل فما في هوى الأندلسيين لبس أمية من خفاء ودولتهم الأولى أموية في أساسها، وابن عبد ربه نفسه حفيد لسالم القرطبي مولى هشام بن عبدالرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وأقر ما يقال في نعل ابن عبد ربه لكلمة الأحيف أنها تركية لرأس الدولة الأموية رجب بها ووافقت هواه

ونعود إلى تاريخ معاوية فيما قاله وفيما سكت عن قوله مد بشأنه الأولى فلا نجد فيه أنراً واحداً لطبيعة الغضب التي تمتص بها فصيلة الحلم كما امتحنت في نفس ابن حنبل الحرير في صدمه الذكل وهو العقمحم المغوار في الجاهلية والإسلام

وبخال أن التاريخ لم يحفظ لما عير حادث واحد يفتح لنا مغاليق هذه الخليفة
 في طوية الرجل، فإنها هي الحق نعر لا يكفى لحله مجرد القول بالحلم أو الغضب
 المكبوت أو بطول الأساة وإنما حله علم النفس الحديث على السحر الوحيد الذي
 يعطيه منه معنى مفهوماً على وجه من الوجوه.

ذلك الحادث هو مقتل حجر بن عدي وأصحابه لغير ضرورة عاجلة
 ولا مصلحة آجلة، فما كان له من خطب غير أنه واحد من أولئك الذين قال فيهم
 معاوية إنه لا يحول بينهم وبين ألسنتهم لأنهم لا يحولون بين بني أمية وملكهم،
 فإن كان لا بد من إسكاته فقد يسكته أن يحملوه إلى مكان لا يلقى فيه من يستمع
 إليه

قال ابن الأثير بعد أن أويل شئ «إن زياداً خطب يوم جمعة فأطال الخطبة
 وأخر الصلاة، فقال له حجر بن عدي، الصلاة فمضى في خطبته فقال،
 الصلاة... فمضى في خطبته فلما خشي حجر بن عدي موت الصلاة صرب بيده
 إلى كف من حصي، وقام إلى الصلاة، وقام الناس معه فلما رأى زياد ذلك مرل
 فصلى بالناس، وكتب إلى معاوية وكثر عليه، مكث إليه معاوية ليثبته بالحديد
 ويرسله إليه، فلما أراد أخذه قام قومه ليمصروه، فقال حجر لا، ولكن سمعاً
 وطاعة فشد في الحديد وحمس إلى معارية، فلما دخل عليه قال السلام عليك يا
 أمير المؤمنين فقال معاوية لأمر المؤمنين يا... والله لا أقيلك^(٣٢)، ولا
 استقيلك^(٣٣) أخرجه فاصربوا عنقه، فقال حجر للناس يلون أمره دعوى حتى
 أصلي ركعتين، فقاموا صل، فصلى ركعتين خفف فنهما، ثم قال لولا أن تطبوا
 بي غير الذي أردت لأطلتهم، وفان لمن حضر من قومه والله لا تطلقوا عني
 جديداً ولا تغسلوا عني دماً فبني لأقر معارية عداء على الحادة وصريت عنقه».

ودش الناس لهذه المقتلة الحزاف، واهتز لها العالم الإسلامي هزة عنيفة
 أورتته ميعضة لدولة بني أمية من تلك المبعضات التي كمنبت وطالت حتى نسيت
 أسبابها وبقيت نوارعها وظل شبح الشهيد الوفور يساور معاوية إلى يوم وقائه،
 فعاء في روبة ابن سيرين «إن معاربه بما حضره الوعدة، جعل يقول يومئذ
 مكث يا حجر طويل»

(٣٢) أقيلك. قال الله عشرته رفعه من سبطه (٣٣) استقيلك، استقال الرجل صاحبه طلب إليه أن يفيله

ولا يحاط بعراض الفرع التي نُصِّتْ بالعالم الإسلامي من جراء هذه المقتلة الباغية، ولكنها قد تتمش في عارض واحد يدل على كثير من الخبر الذي ذاع عن سبيير حجر وأصحابه إلى دمشق لم يكذب يصر إلى السيدة عائشة بالحجار حتى أوقدت عبدالرحمن بن الحارث يذشمع فيه وهي صعبه، وهي لا تسمى أن أعوان معاوية قتلوا أخاها محمداً شرقتلة، ولا يخفى عليها غلو حجر وأصحابه في حب على وشعبته، ويبنها ويبن العلويين من لحفوة ما هو معلوم.

وقد فات معاوية كل عذر في هذه المقتلة حتى ما كان من عذر واه كعذر ابنه يزيد في مقتلة الصير فإن يريد قد أحال الذنب على عبيد الله بن زياد، وانعكست الآية في أمر معاوية وحجر، فكان ريد هو الذي نفض يديه من وزير هؤلاء الشهداء وألقاه على مولا، وصاق مولا بانتحال المَعْدرة بعد حين، فكان جوابه لسائليه مما يخلل اطفال بين الصغار فصلاً عن العاهر بين الساسة وفي ذمة التاريخ.. قال له عبدالرحمن بن الحارث أين غاب عنك حلم أبي سفيان؟ فقال حين غاب عني مثلك من حلماء قومي. وحملني ابن سمية فاحتعلت. وسألتها السيدة عائشة تقول: لولا أما لم تغير شيئاً إلا صارت بنا الأمور إلى ما هو أشد منه، لعربا مقتل حجر. أما والله إن كان مسلم حجاجاً معمر. وكان الحسن البصري الراهد المعروف يقول أربع خصال كن في معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة لكاتب موبقة^(٢١)، ثم أحصاها وذكر منها مقتل حجر: «فيا ويلاً له من حجر، يا ويلاً له من حجر، يا ويلاً له من أصحاب حجر».

وفي رثاء حجر نقول: هذه بنت زيد الأنصارية:

تجبرت الجبابر بعد حجر وطب لها الخوريق^(٢٢) والسدير

فإن يهلك هلك رعيم قسوم من الدنيا إلى هلك يصير

ومعذرة معاوية هذه خليفة أن تدعونا إلى تصديق الوصية التي أوصاه بها أبوه حين سافر إلى الشام، فقد يستكثر على معاوية أن يؤمر بمراجعة أبيه في كل كبيرة وصغيرة فبأن يحدث بينه وبين أحد أمراء في خصومة أو قطيعة، وقد يستكثر عليه أن يصفعه صاع فلا يفتن لنفسه حتى يسأل أباه ويتقرب الحواب منه، فإذا كان الرحن يرتضى من معاذيره أن يقوده ابن سمية فيقتل؛ لأنه لم يجد حرجه رجلاً رشيداً، فليس بالكثير أن يؤمر بمراجعة أبيه في شتم شاتم وصرب ضارب، وهو في مقبيل الشباب قبل الولاية وقبل الخلافة

(٢١) موبقة: مهلكة (٢٢) الخوريق: يفتحسين اسم قصر بالعراق بناء السعاس الأكبر

ولسا نفهم من ذلك أن معاوية كان في حكم القاصر في شبابه وكهولته، ولكننا نفهم أن أباه كان يعرفه وكن يعرف أنه لا يحتكم إلى طبيعة تغضب من الأمور بمقاديرها

حدث صاحب العقد الفريد في الجزء الأول عن أبي حاتم عن العتبى قال «قدم معاوية من الشام وعمر بن العاص من مصر على عمر بن الخطاب فأقعدهما بين يديه وجعل يسألهما عن أعمالهما إلى أن اعرض عمرو في حديث معاوية فقال له معاوية. أعملى تعيب وإلى تقصد؟» فلم تخبر أمير المؤمنين عن عملى وأخبره عن عملك. قال عمرو ففعلت أنه بعملى أبصر منى بعمله. وأن عمر لا يدع أن هذا الحديث حتى يصير إلى آخره فأردت أن أفعل شيئاً أشغل به عمر عن ذلك، فرمعت يدي فلطمت معاوية فقال معاوية إن أبى أمرنى ألا أقضى أمراً دون فأرسل عمر إلى أبى سفيان، فلما أتاه ألقى له وسادة. وقال قال رسول الله ﷺ إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه، ثم قص عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية، فقال لهذا بعثت إلى أخوه وابن عمه، وقد أتى غير كبير وقد وهبت ذلك له»

وصاحب العقد - على هواه الأموى - يسوق هذه القصة في سياق الثناء، وليس نفهم من ذلك أن أباه كان يعرف وكان يعرف أنه لا يحتكم إلى طبيعة تغضب من الأمور بمقاديرها، وأنه إذا غصب يتغاصب بالرأى والاختيار فيخطئه التقدير.

وموقفه مع حجر وأصحابه ظاهرة نفسية معهودة في لطائف التي تصدم فتقبل الصدمة وتحذر من الاندفاع، ولكنها إذ تركت بلا صدمة تردا لم تعرف حدود الارتداد ولا تنأى أن تستسلم للاندفاع

تلك الطاهرة من مورثات طبيعة المطاردة في الإنسان وفي الحيوان أو السبع من قبله. فقد علم المراتبون لطائف حيوان أن المضادة عنه تقرم على حركات متتابعة، ولا تقوم على حركة واحدة فإذا لمع الحيوان من خصمه أنه يحفر منه أخذ في الهجوم، وإذا عدا خصمه أمامه أخذ في العدو وراءه، وإذا أدركه ولم يجد منه مقاومة تصادى في صرعه وافتراسه، ولعبه لو وقف أمامه رابط الحاس من مبدأ الأمر لم تتبسه فيه حركة الهجوم، فحركة المطاردة، فحركة اللحاق والافتراس. وعرف صاده الأسود - وهي أخطر السباع - أنها تتردد إذا واجهها الإنسان ثابت النظر، راسخ القدمين

وقد دخل حصر على معاوية، ومعاوية ينتظر منه صدمه يتبعها حذر هامتباء لراجب الحام والأناة، فلما دخل حصر محيياً به بالإشارة ورل الحاجر الأول: زالت معه الحواجر الأخريات، ولم يعلم الرجل أين يكون الوقوف ووطن أن هذه الخليفة قد أوشك أن تبرز في طوية معاوية من وعيه الباطن إلى وعيه الظاهر، ومن ذلك قوله «إذا شد الناس شعرة أرحبتها وإذا أرحوها شددتها» أو قوله «إذا طرتم وقعنا، وإذا وقعتم طرنا» أو قوله لزيد: «كن أنت للشدة ولا تكن أنت لللين»

فهو يتلقى وحى صبيغته من الصدمة التي تلقاه، فإن لم تكن صدمة فهناك الحيرة التي لا تخرجه منها طبيعة تلوذ بالغضب على قدرة فلا تقف حيث ينبغي لها الوقوف، ولو كان لغضب عنده أثره المطبوع لانتظر الناس حلمه حيث يعصبون، وانتظروا غصبه حيث يحلمون. وكثير من أمثال هذه الخليفة تلقاه ببنت كل يوم يقول القائل عن الرجل من أصحابها لو أنك شددت عليه لأرضاك وجمدت أثر الشدة عليه.

وستدعينا ختام هذا الفصل تفرقة أخرى كاستعوقه بين العلم وامتناع العصب، وهي التفرقة بين الطموح إلى الرعامة والصولة، والطموح إلى الشرف الاجتماعي والوجهة السياسية

فالطموح إلى الزعامة والصولة مزاج حيوى يدخل في تركيب البنية، ويدفع صاحبه كما تدفعه وظائف الحسد، فلا يستريح أو يقود الأمم قيادة الرعامة ويصول بعظمة الرئاسة والعطو على الأقران والأتناع والطموح إلى الشرف الاجتماعي تقليد من تقاليد المجتمع يحرص عليه من توارثوه حرصهم على الصطام وبسطة العيش ووحدة الأسرة والبيت، ويغلب عليه أن يكون تراثاً متخلعاً من الآساء للأبناء يعص من الآباء أن يتخلوا عنه ويروا غيرهم في مكانه.

ولا يلزم من الطموح إلى الشرف الاجتماعي أن يكون صاحبه مطبوعاً على الصولة والعلو وطلب الطاعة والخضوع، وقد يلحأ صاحبه إلى المداورة واللين والخصوع لهذا والعصانة لذاك، يحتفظ بالتراث لذي صار إسه أو يرجو أن يصير إليه

* * *

وبحس هي قرناً شهد لمثال على كل من المودحين في كل قرية وكل إقليم بعيد يسميت «بيت العمدة» في استيقاء وجهته ويلين من أحل ذلك بلحاكم

وصاحب الأمر وأعوانه على المكنة اسوروثه، يهصر رجل آخر مطبوع على الأفعى والصولة فيستطيل على تلك المكابة، ويبارز في تلك الوحافة، ولا يستريح إلا إذا أمر وتحدى ومك رماح العرة بالمقل والفعال .

ويؤاميه عامة، ومعارية خاصة من أصحاب «المظهر الاجتماعي» وليس فيهم غير القبل انادر من أصحاب الطموح إلى الرعاية والصولة كما تكون في بنية المراح وتركيب الخلق والجسد وقد صبر معاوية على ألوان من الخضوع في طلب وحامته السياسية لا يصبر عليها كثير من عامة الناس؛ لأنه يطلب تلك الوجاهة بتقليد وراثي ولا يطلبها بنزعة علوية في الطبيعة والتكوين.

واحتاج أن يقول مرة كما جاء في الطبري مسنداً إلى سعيد بن سويد «ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتركوا قد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم».

وهي قولة لم يقلها أحد غيره من المطبوعين على الصولة والرعاية؛ لأنهم لا يحتجون إليها، ولكنه قالها لأنها حثت على صدره لطول ما صبر على مجابهة هذا ومصابعة ذلك، وتذكير المذكورين إياه أنه لم يملكهم عنوة ولا فتحاً، بل ملكهم المشاركة والاتفاق. فنفس عن صدره بتلك الكلمة ولم يحدث من غيره أنه شعر بالحاجة إلى تنفيس كذلك لتنفيس.

نقد كان في الرجل مشابهة لحمل الصبور، ولم تكن فيه مشابهة للأسد الهصور^(٢٦) كان يصيح لأنه لا يغيضب، وكان يعمل على كاهله وهي طوايا نفسه ما يئوه^(٢٧) غيره بحمله، وكان يصير الصبر الطويل على بلوغ الجاه حيث لا يطاق هذا انصبر مع مروع الطبيعة السوارة^(٢٨) إلى الزعامه والصولة

كان حلم امتناع غضب، وكانت همته تقلد وراثية وحلية وحافة وقد قال مرة أو مرات «إن السلطان يغضب غضب الصبي ويأخذ أخذ الأسد» . ولكنه حين غضب عصبته الأبدية في مقتل حمر وصحبه لم يغضب غضب الصبي وحسب، بل التمس العذر، مجفلاً من غصبته، فلم يفتح عليه بغير عذر انصبري بين يدي العقب

(٢٦) الأسد الهصور الأسد الذي يكسر متلهم قريسته

(٢٧) يئوه ماء الرجل يحميه يهص مثقلاً به، بجهد ومشقة وتغير ماء به الحمر أي أثقله

(٢٨) السوارة الوثابة

خليفة أموية

تميزت بنى أمية في الحاهلية وصدر الإسلام خلائق عامة يوشك أن تسمى -
لعمومها بينهم - خلائق أموية، وهي تقابل ما نسميه في عصرنا بالخلائق
الديوية أو النفعية، ويراد بها أن المرء يؤثر بنفسه ولدويه ولا يؤثر عليها وعليهم
في مواطن الإيثار.

وهذه الخلائق أعور لنا على التعريف بمعاوية من الخلائق التي يسببها إليه
المانحون رافقاجون، لأن المانحين والقادحين قد يصسرون عن عرض، وقد يدورون
انصدق، ولكنهم يخطنون في أمر الرجل الواحد، أما الأخلاق التي تعم قبيلاً بأسره في
أجيال متدبعة فهي أصعب تلقيقاً على الملقين، وأصعب خطأ على المخطئين، فإن
الإجماع على الخطأ نادر في أخبار الناس كالإجماع على الصواب.

وهذه الخلائق الأموية دسوبة نفعية كما قدماء تميل بالمتخفين بها إلى
مساغم الحياة وتحبب إليهم العيش الرعد والمنزل الوثير^(١)، وتعريهم بالنعم
واللدات يدمونها على أنفسهم وعلى الآخرين، فهي عندهم قسطاس الأبرار بمن
يحبون كما يحسبون.

وقد عرف خيارهم، ديناً وصلاًحاً، بهذه الخلائق الأموية كما عرف بها
كثيرون منهم لم يشتهروا بدين ولا صلاح.

فما عرف من بنى أمية أحد أصلح من عثمان بن عفان وعمر بن عبد العزيز
رضي الله عنهما، وما تكلم متكلم عن هذين العلمين الرفيعين من بنى أمية
ماستطاع أن يسكت عما طبعها عليه من حب البعثة ووجاهة الدنيا على أحسن ما
يروى عن الأمويين.

كان عثمان رضي الله عنه يقول عن نفسه كما جاء في كتاب الرياض
النضرة: «كنت رجلاً مستهتراً»^(٢) بالنساء، وكان استهتاره بهن أن يكثر من الزوج
وحب عثمان لاتخاذ المباني والعمائر مشهور، وحبّه لاحتصاص دوى مرياه
واغداق المعنة عليهم مشهور كذلك، وكله مما أحصاه عليه الثائرون ووجدوا فيه
متسعاً للتريد والادعاء.

(١) الوليد الرفيع القين من القيس.

(٢) مستهتراً، يستهتر الرجل انبع هواء فلا يبالي بما يقع، وبغلافه اوسع به فلا يبالي بما قبل محبة لاحتها.

وعاش بعد الإسلام محباً للطعام الدسم والصحاف المستنقاة، فحدث عمرو بن أمية الضمري عنه قال: «إني كنت أتعشى مع عثمان خريزه من طيخ من أجود ما رُب، فيه بطون العجم، وأدمه اللبن والسمن، فقال عثمان كيف ترى هذا الطعام؟ فقلت: هذا أطيب ما أكلت قط. فقال: يرحم الله ابن الخطاب أكلت معه هذه الحريرة قط؟ قلت: نعم، فكادب اللقمة نعرث من يدي حين أهوى بها إلى فمي، وليس فيها لحم، وكان أدمه السمن ولا لبن فيها. فقال عثمان: صدقت! إن عمر رضى الله عنه أتعب والله من اتبع أثره، وبه كان يطلب بشبهه - أي منعه - عن هذه الأمور ظالماً - أي غلظة - في المعيشة، ثم قال: أما والله ما أكله من مال المسلمين ولكي أكله من مالي. وبت تعلم أني كنت أكثر قريش مالاً وأجدهم في التحارر، ولم أر أكل الطعام ما لأن منه، وقد بلغت سنًا، فأحب الطعام إلى ألبه».

وقد كان عثمان أسرع قومه إلى الإسلام لأسباب بينهاها في كتابنا «ذو السورين». وإنما حسب له الإسراع إلى الإسلام حيث حسب الإبطاء وانتقاعه عنه لأكثر من بني أمية، على دينهم من كل دعوة من دعوات المثل العليا أو دعوات الأريحية والإيثار، ولا موضع هنا للإطالة في نقل أخبار المسافرات والمفاخرات التي تلم بهذا المعنى، ويكتب نجلها جميعاً في موقف القوم من حلف الفصول وهو مشروح بتفصيلاته انتهى لا يشك فيها من يشكون في تلك المسافرات والمفاخرات، فقد ظلم رجل في جوار الحرم وباع بصاعة لواء يحقها من اشتراها فاستغاث بدوى المروءة وقام على شرف^(٢) من الأرض يعلن شكواه، فاجتمع بنو هاشم وبنو أسد، وبنو زهراء، وبنو تميم على إنصافه وإنصاف كل مظلوم مثله، فلا يطعم بمكة عريب، ولا قريب، ولا حر، ولا عيب، إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم. وعمدوا إلى ماء من زمزم فجعلوه في جفنة^(٣) وبعثوا به إلى البيت فغسل به أركانه وشربوه، ولم يدخل في هذا الحلف أحد من أمية وبني عيد شمس بل كان الرجل منهم يود أن يدخله فيحشى أن يحسب خارجاً على قومه، وقال أحدهم - عتبة بن ربيعة - لو أن رجلاً وحده خرج على قومه لخرجت من عبد شمس حتى ادخل حلف الفصول.

وهذه الخلائق لأمره وصحت في الجاهلية وصدر الإسلام وصوحاً لا لبس

(٢) جذبة القصص

(٣) شرف. المخاض العالي

فيه قبل أن تلتبس الأنساب ويكثر الزواج من غير العشيرة، والبناء بالجوارى من الروم والفرس والترك والبربر، ولكنها ظلت أموية حيث تغلب الأموية في الدم والنشأة والتقدم والقدوة والحوار

فعمرو بن عبدالعزيز - أشبه الملوك في دولة بني أمية بالخلفاء الراشدين - كان كما جاء في أساميد ابن الجوري «رأيته في المدينة وهو أحسن الناس لبساً ومن أطيب الناس ريحاً، ومن أخير الناس في مشيته، ثم رأيت بعد ذلك يمشي مشية الرهبان».

وانفق الرواة، كربي عبد الحكم والأصفهاني وابن الجوزي في أطراف من أساميد، أنه كان يتطيب في شبابه فيستظر الناس ثيابه عند الغسل ليفسل بهم في موضعها، وأنه كان يرجس شعره ويتبختر في مشيته حتى عرفت له مشية عمرية يحكيها العتاس والعتياب، وكان يتختم بالجواهر ويلبس الإزار بمائة دينار، ولا يرى مرتباً في كساء واحد، وربما تأخر في صباه عن موعد الصلاة لاشتغاله بترجيل^(١) شعره وسأله مؤدبه صالح بن كيسان مرة عن تأخره وهو ينتظره لإقامة الصلاة، فاعتذر له بلطاء مرحلته - أي السارية التي تعنى بترجيل شعره - فغضب المؤدب الصارم ولأمره أن يعف عن موعد صلاته ليعنى بتسكين شعره.

وما برح الخليفة الصالح في نصب من أمر عاداته هذه حتى أقطع عنها بعد جهد، وآب من ترف العسرفين إلى نك المبرمتين، وقيل إنه ترف من بني أمية وسك من الفاروق؛ لأنه ينتمى من ناحية أمه إليه وعلى هذا الجهد بعيت معه تلك العسبة نعاودة ولا يأمن أن يسهر عن نفسه مشوب إليها في طريقه، فجعل له قريباً يلازمه ويصفقه بيده كلما هم أن يثور إليها

ولا يسى أن بني أمية عشيرة عرسة كبيرة قد تتميز بخلائقها الأموية، ولكنها لا تنفصل عن المجتمع العربي ولا تشد عن عرقه لتقليد الذي ترعاه جميع العشائر الكبرى ولو من قبيل المحافظة على المراسم والأشكال، ومن تقاليد هذا

(١) ترجيل، رجل الشعر، سوجه

(٢) أهمل أكثرهم عجباً وكبراً.

العرف أن تروض بيوت الرناسة أهباءها على نظام كالنظام العسكري، في صياهم وبعد بلوغهم مبلغ الشباب الذي يندب للقتال أو لتصرف الأمور، وسواء اختاروا إبادية لتدريب الأبناء على هذه الرياضة أوعهدوا بها إلى المربين في المن والدور فلا يشأ الناشئ منهم إلا على رياضة من هاتين الرياضتين، وكذلك فعل عبدالعزیز بن مروان في تربيته ابنه عمر فاختار له المؤدب الذي ينفعه وبأخذه بعرائض دينه ودنياه، ولما بلغه من هذا المؤدب صالح بن كيسان - أن الفتى الصغير يتأخر عن موعد الصلاة لا يشغاله بهرجيس شعره أرسل إليه من قبله رسولاً خاصاً، فأمره ألا يكلمه حتى يقص شعره ويبلغه غضب أبيه، ولا تحسب أن أحداً من رؤساء البيت غفل عن مثل هذه الرياضة في تنشئة بنيه، ولكنها رياضة تنتهي إلى القدوة البيئية فلا يبقى لها من أثر أو لا يبقى لها إلا الأثر الضعيف وكان عبدالعزیز يحاقب عمر ذلك العقاب وهو يمزح في الترف مخرعاً لا يستطيع ابنه - وإن أسرف أن يذهب إلى مدى أبعد من سداد، فاقطنى الدور في مصر وجعلها بالأثاث الفاخر، وجعل يهديها إلى أبنائه ورويه واشترى أرض حيوان بعشرة آلاف دينار ليقم عليها قصره العتيق الذي موه جدرانها بالذهب وأنفق على فراشه وأثاثه عشرات الألوف، وكان له كل يوم ألف جفنة للقرى يدار لضيفان وكانت أيامه كلها كأبها أيام أعياد كما جاء في معجم البلدان

كل يوم كأنه عيد أضحى
عبد عبدالعزیز أو يوم قطر
وله ألف جفنة مترعات
كل يوم يمددها ألف قدر

وشهد هذا البذخ كله عمر وثقوب بين أعطاه، فلولا عرق من العاروق أدركه، لم تحول من هذا البذخ إلى السك الذي صارع به أزهق الخلفاء الراشدين وليس عبدالعزیز على هذا - بالمثل الذي يقال عنه إنه «بموزج» للخليفة الأموية في الكلف بالمعممة الدنيوية والعجب بالزينة والشارة^(٧) وبالقسامة^(٨) والنوسامة، بل كانت هذه الخليفة على أتمها في سليمان بن عبدالملك أكلهم بعممة العيش حيث كانت في همام أو كساء أو ترف أو سرف أو خلاء كان بهما لا بشبع ولا يرجع الحيوان من بين يديه وعليه يقية، وكان ليس

(٧) الشارة الهيئة واللباس الحسن

(٨) القسامة الجمال والرياء

الوشى على أفخر حلية وريثة ويحضر لصهاة بين يديه بالسفايد عليها الدجاج والطير فلا يتمهل بها حتى تصبح، بل يلف يده في كفه ويتناولها من المار ويأتى عليها قبل أن تمس إلى الصحاف، وربما صحبه عمر في السفر وهو صائم فلا يجد على المائدة فصل طعام إذا حان موعد الإفطار، وقد مات بالتخم مع إصابته بالحمى وهو في الأربعين وأبناؤه الصغار لا يصلحون لولاية العهد، فجعل ينظر إليهم ويبش

بن بلى صببة صغار أفصح من كان له كبار وأمر وزيره رجاء بن حياة أن يعرضهم عليه في الخودات والدروع لعله يخدع نفسه بمنظر صبي منهم يصلح لولاية الملك، فلم يجد منهم من يروعه أو يروقه في تلك الأزياء وأوصى بولاية العهد على كره لعمر بن عبد العزيز قال ابن الجوزى في سيرة عمر بإساده إن سليمان بن عبد الملك كان ربما نظر في المرأة فيقول: أنا الملك الشاب.. وكان جالساً فنظر في المرأة إلى وجهه فأعجبه ما رأى من جماله فقال: أنا الملك الشاب، وكانت على رأسه وصيفة فقالت

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا يقاء للإنسان
ويروى هذا البيت في أسانيد أخرى روى البيت الثقالى
ليس فيما بدا لنا منك عيب عابه الناس غير أنك فإن
ودخل عليه المفصل بن المهلب يوم حمعة فرأه يدعو بالثياب ويلبس منها حلة
بعد حلة ويخايل بها أمام امرأة ثم يجلعها، ويأسى بغيرها حتى ارتضى حلة
منها فالتفت إلى المفصل سائلاً: يا بن مهلب، أعجبتك؟ قال المفصل: نعم
فقص^(٩) عن ذراعيه وهو يقول: أنا الملك الفتى
هذا هو الأموى من الأمويين وعبره صبه يشبهه في كل خصلة من هذه
الخصال على درجات، ومنهم معاوية رأس الدولة وأقربهم إلى رومة^(١٠) الميراث
... ..

كان في معاوية كل خصلة من خصال سليمان بن عبد الملك ولكنه لم يسترس فيها كما استرس سليمان مع تناول الرمز بعد قدوة البيه والحلافة الأولى
حلافة الراشدين.

(٩) حبر كشف. (١٠) أومنة أصل الشجرة، ويستعار للمعص

حاء في الطبري أنه كان يأكل في اليوم سبع مرات يلحم ويقول: «والله ما أشبع وإنما أعيأ».

ولم يروف الطبري وهو يشهر بها، بل رواها وقال بعدها: «وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك».

وسبق الصبري هذا الخبر بتعليل لهذه النعمة من دعوة رسول الله عليه هي صباه.

فمن أخبار الإمام أحمد المسندة إلى ابن عباس أنه قال: «كنت ألعب مع اسفلمان فإذا رسول الله قد حاء فقلت: ما جاء إلا إليّ سأختصم على باب فجاءني فخطاني خطاة أو خطاتين ثم قال اذهب فادع لي معاوية، وكان يكتب الوحي قد ذهب دعوته له، فقبل به يأكل سأنت رسول الله فقلت: إنه يأكل فقال: اذهب فادعه فأتيته الثانية، فقبل: إنه يأكل، فأخبرته فقال في الثالثة لا أشبع الله بطنه، فما شبع بعدها».

ولم يزل بعد الإمارة يعرط في مأكله من اللحوم والخلوى والعاكهة حتى ترهل^(١١) وعجز عن القيام طويلاً فكان يحطب على المنبر وهو جالس، وكان أول من جلس في خطبة منبرية.

وشغف بالأكسية كما شغف بالأطعمة، فلبس الحرير وتختم بالذهب والجواهر وولع بالثياب المزخرفة والموشاة، وترين بالزينة التي كرهها الإسلام لعامة الرجال فضلاً عن الضعفاء والأمراء، وكان لا يترك أن يترك الزينة بالكساء في صدر الدعوة والخلافة وفي الزمن الذي كان يتحرج فيه من إعصاب ولي الأمر، وهو عمر بن الخطاب.

قال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد كما رواه الطبري: «قدم علينا معاوية وهو أبيض بض^(١٢) وباصر^(١٣) أبصر الناس وأجملهم، فخرج إلى الحج مع عمر، فكان عمر ينظر إليه فبعجب منه ثم يصيح أصغره على من معاوية ثم يرفعها عنه مثل الشراك فنقول: بنح يح نحن، ذن خير الناس أن جمع بنا خير الدنيا والآخر» فقال معاوية: «يا أمير المؤمنين! سأحدثك أنا بأرخص الحمامات

(١١) تهرأ، استرخى لحمه وصار في ابتعاج.

(١٢) بض، الرقيق الجاء السفلين.

(١٣) وباصر، لاجع، براق.

والريف ولشهراته» فقال عمر «سأحدثك أنا ما بك، لا إلفاك نفسك بألف الطعام وتصبحك حتى تصرب الشمس متبك^(١١)» ودور الحاحات وراء الباب؟ فقال معاوية يا أمير المؤمنين، علمني أمثلش، قال راوى الخبر: فلما جئنا ذا طوى أخرج معاوية حله فلبسها، فوجد عمر منها ريحاً كأنه ريح طيب، فقال: يعمد أحدكم فيخرج حاحاً مقللاً حتى إذا حاء أعظم يسان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا في الطيب فليسهما؟ فقال معاوية إنما ليسهما لأدخر بهما على عشيرتي وقومي قال عمر والله لقد بلغني أذاك هما وفي الشام^(١٢).

وزاد راوى الخبر فقال «والله يعلم أنى لقد عربت الحياء فيه، ثم مرع معاوية ثوبيه وثبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما».

وروى عمرو بن يحيى بن سعيد الأموى عن جده قال: «دخل معاوية على عمر وعليه حلة خصراء، فنظر إليها الصحابة، فلما رأى ذلك عمر وثب إليه باندة^(١٣) فجعل يضربه بها، وجعل معاوية يقول «الله الله في يا أمير المؤمنين مرجع عمر إلى مجلسه، فقال له القوم لم ضربته يا أمير المؤمنين، وما في قومك مثله؟ فقال والله ما رأيت إلا خيراً وما يلغى إلا خيراً، ولو يلغى غير ذلك لكان منى إليه غير ما رأيتم، ولكن رأيته وأشار بيده - فأحببت أن أضع منه ما شمع».

• • •

ولم يكن زهوه بسمته وسماته سوى زهو سليمان، فكان يصفر لحيته كأنها الذهب وقد أصابته لوعة في آخر عمره - وهي كأثر الضربة في الجلد - فكان يستتر وجهه ويقول «رحم الله عبداً دعا إلى بالعافية فقد رميت في أحسنى ولولا هواى في يدي لأبصرت رشدي».

وهواه في يريدون من ألوان هذه الخسة الأمرية، فكل الآباء يحبون الأبناء ولكن القوم لا يحسبون، لأب باراً يابنه إلا إذا «سعمه» أو شعر بتقصيره فيما يحظر عليه الآباء من رعد بنائهم وفيما يتركوه لهم ويتعاصون عنه كأنهم يجهلونه وقد أرسل معاوية ابنه يزيد إلى نادية بنى كلب - أخواله - ليبري بهم على الفروسيه والبلاغة العربية، وبكفه فعل ذلك كأنما يفعل قياتاً بما تقتضيه مراسم السلف ولم يتبعه بما هو ألزم ليريد من صروب التربية والرياضة على كبح الأهواء ولا سبب الهوى الذي ينظر إلى حرمان الناس وعراض الرعية، فقد علق

(١١) الدرر: يكسر الدال المشددة سواء تصرب به

(١٢) متبنيك الصمد جاد الطهر

يريد يروجة عبدالله بن سلام زيب بنت إسحاق، ومرض بحبها مرضاً أدفعه
 واحتال أنوه حتى عرف سر مرضه من خصيان العصر، فأرسل في طلب
 أبي هريرة وأبي الدرداء فقال لهما إن لي ابنة أريد زواجها ولا أرضى لها حليلاً
 غير أبي سلام لدينه وعصله وشرفه، فاستدع ابن سلام وذهب إلى معاوية يخطب
 بنته وقين بن معاوية وكل الأمر إلى أبي هريرة ليبلغها ويستمع جوابها، فأجابته
 بما اتفقت عليه مع أبيها وقالت له إنها لا تكره ما اختاروه، ولكنها تخشى الصرة
 وتشفق أن يسوقها إلى ما يغضب الله مطلق ابن سلام زوجته واستنحر معاوية
 وعده فلواء به ونفى إليه عن ابنته أنها لا تأمن رجلاً يطلق ابنة عمه وأجمل نساء
 عصره.

وكأنما كان معاوية مهموماً بشهوات ولده في زوج أو غير زوج، فقد حدث
 ابن عساکر من ترجمة خديج الخصي أن معاوية اشترى جارية بيضاء جميلة
 فأدخلها الخصي عليه مجردة، وبينه قصيب فجعل يهوى به على جسدها ويقول:
 هذا المتاع لو كان لنا متاع أذهب بها إلى يزيد ثم قال ادع لي ربيعة بن عمر
 الحرشي - وكان فقيهاً - فلما دخل عليه قال: إن هذه أتيت بها مجردة قرأت
 منها داك وداك، وإنني أردت أن أبعث بها إلى يزيد فقال الحرشي لا تفعل يا أمير
 المؤمنين فإنها لا تصلح به، فقال معاوية مع ما رأيت! ثم وهبها لعبد الله بن
 مسعدة القراري مولى فاطمة بنت رسول الله، وكان أسود، فقال له: ببص بها
 ولدك.

• • •

ومعروف فنقول إن الطبري يسند هذه الأخبار إلى أصحابها ولا يسوقها مساق
 استشهير، لأنه اتخذ من هذا الخبر دليلاً على فقه معاوية فقال «وهذا من فقه
 معاوية وتحريه» حيث كان ينظر إليها بشهوة، ولكنه استصعب نفسه عنها، فتخرج
 أن يهبها لولده يزيد لقوله تعالى ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا بَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ وقد
 وافقه على ذلك العقبة ربيعة بن عمر الحرشي الدمشقي.

وما من تربية ليريد تصلحه للخلافة بعد هذا «التعميم» الذي يملأ له في
 شهواته وهو مقدم على رئاسة عربية عهد سابين الخطاب يل بابن عفان، من
 الخليفة الثالث رضى الله عنه قد أجاز لنفسه من المصعة البيوية ما لم يحره

الفاروق ولكنه لم يحدث نفسه قط باقتناء الخصيان والجواري على سنة
القيصرية والشواهين، وبولا تلك الخليفة الأموية التي تماهى بها تنساع الملك في
أهوائها وغواياتها، لما فات رجلاً وسط الدكاء - أن هذه التربية لا تعد إنساناً
لحياسة الملك المنقزع بالحيلة والحول قبل استقرار الأمور بين مطامع الأقرباء
من العشيرة فضلاً عن الغرياء.

وكان معاوية ينازع طبعه بين الخليفة الأموية وبين آداب الدين الذي يتولى
خلافته، فينزل بنفسه درجات دون سيرة الحلفاء الراشدين لاقتنائه بالدينا
واستسلامه لغوايته، وله أكثر من كلمة في هذا المعنى يقول في بعضها «إن أبا بكر
سلم من الدنيا وسلمت منه، وعمر عاشها وعالمته، وعثمان مال منها ومالت منه
أما أب فقد تضجعتها ظهراً ليمل رانقطعت إليها فانقطعت لي» ويقول في بعضها
من خطبة بالمدينة «إن أبا بكر رضى الله عنه لم يرد الدنيا ولم تردده وأما عمر
فأرادته الدنيا ولم يردّها، وأما عثمان فقال منها ومالت منه، وأما أنا فعالت بي
وملت بها، وأنت ألبها»^(١٦) فهي أمي وأنا ايها، فمن لم تجدوا في خيركم هأنا خير لكم»
وكانما كان يشهد على نفسه هذه الشهادة تواضعاً من جهة وتزكية بقدرته
على الملك الديوي من جهة أخرى، فإن كان الرعية لا يرتصونه قدرة لمصالح
والتقوى، فهم مرتصوه مديراً لشئوبهم وقائماً على مصالح دينهم

ويشعر معاوية بالمنازعة بين الخليفة الأموية وآداب المروءة العربية كما
يشعر بالمنازعة بينها وبين آداب الدين فإن طالب السيادة يكره أن يبرل في
مدزلة دور منازل الشرف والكرامة بين هومه، فإن لم يكره ذلك حباً للخلق
المأثور فلهذه يكرهه حباً لنفسه، وعيرة على سيئاته وعلوه في نظر المكبرين
لآداب المروءة سواء تحلوا بها أو تجرّوا منها

ومن برادر معاوية في هذه المنازعة المتكررة بين خلائق عشيرته وآداب
العرب عامة أنه جلس يوماً مع خاصته يسألهم فيما بقي له ولهم من لذات الحياة
بعد ذهاب الشباب فإذا هي عنده لذات لا تعدو مذاق الشواب السائغ وسروره
بالنظر إلى بنيه، ثم تباه منه إلى إسعافه هداً، فانقبه ولم يكابر طبعه؛ لأن الأمر
وراء المكابرة بإجماع يعرف وإجماع الدين.

(١٦) ألبها: لين يظن الراعى الغلام، سقاء اللبن

روى الواقدي أن عمرو بن العاص «دخل يوماً على معاوية بعدما كبر ودق
ومعه مولاة وردان، فأخذا في الحديث وليس معهما أحد غير وردان، قال عمرو
يا أمير المؤمنين! ما بقي مما تستلذه؟ فقال: أما النساء فلا أرب لي فيهن، وأما
الثياب فقد لبست من لينها وحيدها حتى وهى بها جلدي فما أدرى أيها أليين،
وأما الطعام فقد أكلت من لذيذه وطيبه حتى ما أدرى أيه ألد وأطيب، وذكر مثل
ذلك عن الطيب وغيره من مناعم الحياة، ثم قال، فما شيء ألد عدى من شراب
بارد في يوم صائف، ومن أن أنظر إلى بنى وبنى بني يدورون حولي.

وعطف معاوية سائلاً، فما بقي منك يا عمرو؟

قال عمرو مال أعرسه فأصيب من ثمرته ومن غلته.

فالتفت معاوية إلى وردان فقال ما بقي منك يا وردان؟

قال وردان صنعة كريمة سبية أعلقها في أعناق قوم ذوى عضس واضطبار

لا يكاهنوني بها حتى ألقى الله تعالى، وتكون لعقبى في أعقابهم بعدى

فقال معاوية تياً بمجلس سائر اليوم إن هذا العيد علبى وغليك»

خليفة أموية عربية مضى الرجل على سحيته فلم يخطر له أن يستيقى من

متاع الدنيا الذي عجز عنه إلا شيئاً يذاق، وشئناً يسره من النظر إلى دريته ثم به

انصبه إلى المكرمات المأثورة فلم يجدها ولم يعرب عنه حميد أثرها

وإن شئت نقل خليفة أموية وكفى، فإن من أثره ما يوحى إلى صاحبه ألا

يدل طواعية عن مأثرة يرتفع بها غيره، ولا يسعه أن يتكرها

وهكذا كانت الخليفة الأموية مع المروءة العربية في كل مأثرة محموده بين

عشائر العرب الكبرى وبين العرب خاصة وعامة، وأولها مناقب الشجاعة والكرم

والنخوة، فما كان في وسع بني أمية أن يغمضوا أعينهم عن هذه المناقب، ولا أن

يصغروا من حقها، ولكن التسليم للمعقبة شيء والجهد في تحصيلها شيء آخر.

ولهذا مضى تاريخ بني أمية في الجاهلية وليس بينهم واحد معدود حين يعد

العرب فرسانهم المقدميين وأحوالهم المشهورين ودوى السجدة من صفوة

عشائريهم وسخبة ساداتهم، وظهر فيهم الشجعان في صرا الإسلام كيريد بن أبي

سفهان، وهو أخ غير شقيق لمعاوية، ولكنه لا يحسب عندهم ولا عند غيرهم من

فرسان هاشم في جيل واحد، كعنى وحمرة

وسئل معاوية بنفسه - وسأله عمرو بن العاص - والله ما أدري يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم حبان؟ فقال
شجاع إذا ما أمكنني فرصة فإن لم تكن لي فرصة فحبان

ولم يؤثر لمعاوية موقف واحد يحسب من مواقف الشجاعة البينة، بل حسب عليه أنه كان يأوى إلى قبة يحيط بها الحراس في معارك صفير، وأنه أسرع إلى مرسه في ليلة الهرير لينحو بحياته، ثم بدأ الخطر بعض الشيء فراجع نفسه وتراجع إلى مكانه وهو آمن من عاقبة هذه الرجعة، بعد أن خفت الهجمة على موضعه من ميدان القتال.

وليس من أخبار بني أمية في الجاهلية وصدر الإسلام خبر واحد ينفي عنهم هذه الحليقة الغالبة عليهم جميعاً من الأثرة والكلف بالمناعم الدنيوية وتقديمها على غيرها من مناقب الإيثار والمثل العليا.

وبهذه الحليقة يعسر كل عمل من أعمال معاوية على انفراده بينهم بصفات من الحزم لم يشتهروا جميعاً بمثلها، وهو مع حرمة «الدنيوي» هذا لم يصطدم بالخليفة الأموية إلا وهن منه الحزم في هذا المصطدم فكان من الحزم ألا ينوسع في أبهة الملك أو أبهة «الهرقلية والكسروية» كما كان المسلمون يسمونها في صدر الإسلام، ولكنه لم يكد يملك حتى صنع ما يصنع القياصرة والأكاسرة من اقتناء الخصيان والجواري والتوسع في بذخ القصور والقصور، وكان من الحزم أن يروض يريد على كبح الشهوات، فلم يكد يسمع أنه اشتهى امرأة في عصمة رجل حتى احتال حبلته لإمتهاعه بما اشتهى، وأن النهارين من مؤرخي العصر القديم ليفسرون صلوات الجامعة في المقاصير^(١٧) بخومه من الغيلة بعد مؤامرة الثلاثة التي قتل فيها على رضوان الله عليه. ولئن صح هذا لما نفى عنه تلك الحليقة الأموية التي تلوذ بالحيلة حيث لا يلوذ بها المرأون منها، فقد قتل عمر وعلى ولم يلحأ الحس أو الحسين إلى المقاصير أو إلى الحرس الميسر لها وهو غير قليل، وقد كانت أبهة المواكب من دأب معاوية، إذ كن - بعد - على ولاية الشام من قتل الفاروق، فلما راه الفاروق في موكبه أعرض عنه ثم عذفه وسأله عن اتخاذ المواكب مع احتجاجه عن ذوى الحاجات،

(١٧) المقاصير جمع مقصورة وهي عرفة من عرف الدار ومن المسجد مقام الأصم وغرفة صغيرة مرتفعة

فاعتذر له بموقعه من بلاد العدو، ودأب على اتخاذ المواقف ونسيير الجند بين يديه قبل أن يخشى عيلة من معتال
عند هذه الخليفة الأموية تفسير الكثير مما جعله المؤرخون الأقدمون
أو جاهلوه، ولا سيما المؤرخين النصارى من المنتفعين أو العتطوعين

موقف معاوية من قضية عثمان

كل خبر من أخبار العصر لازم مطلوب لعلم تاريخه وأعمال رجاله، ولكن الأخبار المقدسة على غيرها في حوادث العام الإسلامي التي أفضت إلى قيام الخلافة الأموية، بما هي الأخبار التي لها أساس بموقف معاوية من عثمان قبل مقتله وبعد مقتله والمبايعة لعلي بالخلافة هي الحجار

فبغير هذه الأخبار التي تكشف عن موقف معاوية لا يستطيع المؤرخ أن يثبت من حقيقة البواعث التي كسبت وراء الحوادث والحروب والخصومات، ولا يستطيع أن يعرف ما هو صحيح منها وما هو مصطنع من تدبير اسواس والدعاة

فما هي حقيقة المسائل التي أدارت معاوية على علي وجبحت به إلى سلوك المسلك الذي اتخذه هو ومعاونوه؟ ماذا منها قد حدث فعلاً، وماذا منها لم يحدث، وقير إنه حدث للافتتاح به في الدعاء ورد الادعاء.. وفي الاتهام ورد الاتهام؟ أو ماذا منها قد حدث فعلاً وحرفه الدعاة إلى غير وجهته وأولوه بغير معناه؟ وماذا من تلك الحوادث حقيقاً كان خليقاً أن يتغير لو تغير الموقف وتغيرت النيات والمساعى؟

كل أولئك مرهون بالنفاذ إلى حقيقة موقف معاوية من عثمان قبل مقتله، وبعد مقتله، ومبايعة علي بالحجار

وكل ما وصل إلينا من أخبار ذلك الموقف يدل على شيء واحد لا محل فيه للحلاف الطويل بين الناضرين إليه من الوجهة التاريخية الخالصة، وهو عمن معاوية لنفسه في كل مطلب طلبه من عثمان، وكل نصيحة أسداها إليه وكل مشورة أشار بها عليه، فليس هي هذه المعطيات والمصانح أو المشورات شيء قط تحرد من منفعة ينظر إليها معاوية في حاضره أو مصيره، وكل ما عدا ذلك فقد يكثر فيه الحلاف ويؤول فيه التأويل.

كان معاوية في عهد انقاروق قانعاً بعطائه السنوي وهو ألف دينار، وكان الولاة والرعية لا يشكون إجحافاً ولا محاباة فيما يرجع إلى أرزاق أعمال الكبر والصغار ومنهم الولاة فلما انقضى عهد انقاروق كثرت الشكوى من تقسم هذه الأرزاق ومن إثثار بعض الولاة بالولايات بقرابتهم من الخليفة، وكانت هذه

الشكوى إحدى الدعايات التي تذرع بها المشاغبون للثورة التي تعاقمت حتى ذهبت بحياة عثمان.

ولم يكن معاوية يحفل هذه النعمة العاشية في الولايات، ولكنه على ذلك كتب إلى عثمان يطلب زيادة عطائه، ويطلب غير ذلك أن يقطع الأرض التي قتل أصحابها من الروم أو تركوف ويحرقو إلى بلاد غير البلاد المفتوحة من أرض الدولة البيزنطية، وتعلم له بكثرة وهود لأمصار والرسل، وأن هذه الضياع المترككة لا يؤخذ عليها الخراج، ولا تحسب من أموال أهل الذمة كما جاء في تاريخ ابن عساکر، وكانت هذه الضياع وأمثالها تلحق ببیت المال وينفق منها على المصالح العامة ومعونة المعوزين ودوى الحاجات، فلما أدرك له عثمان سرورها والانتفاع بثمراتها حبسها على نفسه وعلى آل بيته وخدامه وأعوانه في سياسته، وعهد إلى كل معترض عليه وعلى إساقفه لهذه الأموال في غير حوزها تأقصاه عن الشام ورسله إلى حيث نشاء من البلاد الإسلامية الأخرى لا يعنيه أن يصنع المشاغبون ما يصنعون في غير ولايته، وهو يعلم أنهم سيشقون على عثمان حيث ذهبوا وأن عثمان يلقي من الفتنة ما هو حسبه في حوارته وحديث أبي در في الشام معروف بسن منه ما يدور حول موقف معاوية من عثمان كما جاء في ابن الأثير

«كان أبو در ذهب إلى أن المسلم لا ينبغي أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفعه في سبيل الله أو يعده لكریم، يأخذ بظاهر القرآن ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ لَهُمُ الْقَرْضَ وَالْقَرْضَ وَلَا يَفْقَهُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَتَرَهُمْ بِعَذَابِ الْيَمِّ﴾ فكان يقوم بالشام ويقول يا معشر الأعياء واسوا الفقراء.. بشر الدين بكفرون الذهب والفضة ولا ينفقوها في سبيل الله بشكاؤهم من نار تكوى بها جباههم وحبوبهم وظهورهم، فصارال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأعياء، وشكا الأعياء ما يقون منهم فأرسل إليه معاوية بألف دينار في جنح الليل فاستقبلها فلما صلى معاوية الصبح دعا رسوله الذي أرسله إليه فقل انذهب إلى أبي در فقل له انقد جسدي من عذاب معاوية فإني أرسلني إلى غيرك وإني أخطبك بك فععل ذلك، فقال له أبو در يا بني قل له والله ما أصبح عديدا من

(٨) جنح الليل بكسر الجيم طائفة وقطعة منه

دساييرك ديمار ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها، فما رأى معاوية أن فعه يصدق قوله كتب إلى عثمان إن أبا ذر قد ضيق على، وقد كان كذا وكذا للذي يقوله للفقراء مكتب إليه عثمان إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعيبيها، ولم يبق إلا أن تشد، فلا تمكأ القرح وحنز أبا ذر إلى ويبحث معه دليلاً وروده وارفق به، وكهكف الناس وبفسك ما استطعت».

• • •

ولما خرج الشاعبون بالعتمة من الكوفة إلى الشام بأمر عثمان كتب عثمان إلى معاوية كما جاء في ابن الأثير «إن مقرأ قد خلقوا للفتنة فأقم عليهم وانهم فإن آست منهم رشداً فأقبل، وإن أعيوك فارددهم على».

فلقيهم معاوية وزجرهم وأغلظ لهم، ثم أتاهاهم بعد ذلك فقتل بهم. إبي قد أذنت لكم فذهبوا حيث شئتم لا يمنع الله بكم أحداً ولا يضره، ولا أستم برجال مبيعة ولا مصرة فإن أردتم السجاة فالزموا جماعتكم ولا يبطونكم الإيعام فإن البحر لا يعترى الخيار، انهبوا إلى حيث شئتم فساكتب إلى أمير المؤمنين فيكم».

وكتب إلى أمير المؤمنين يهود له من شأهم ويقول عنهم إنهم «ليسوا لأكثر من شغب ونكير».

ولم يكن أمرهم ليعييه، فلأنهم ذهبوا حين سرحهم يقصدون الجزيرة فعلم بهم عبدالرحمن بن خالد فما أعياه أمرهم ودعاهم إليه ولم يذهب إليهم كما فعل معاوية فتوعدهم عبدالرحمن وعيذاً لا يشكون فيه وقال لهم: «يا آلة الشيطان! لا مرحباً، لا أهلاً، قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم - بعد - نشاط خسر الله عبدالرحمن إن لا يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم لا تقولوا لي ما يلغني أنكم قسم لمع».

ابن خالد بن الوليد، أب ابن من قد عجمته^(٢) العجميات أنا ابن فاقى الردة والله شر يلغني يا صعصعة أن أحداً ممن معي دق أنفك ثم أمصكه - نبي جعلك تمصه - لأطيرن بك طيرة يعيدة المهوى عاقامهم شهراً كلما ركب مشاهم، فإذا مر به صعصعة قال، يا ابن الخطيئة! أعلمت أن من لم يصلحه الحير أصلحه الشر مالك لا تقول كما يلغني أنك قلت لسعيد ومعاوية؟ فيقولون، نتوب إلى الله أقلنا أقالك الله فما زالوا به حتى قال، تاب الله عليكم، وسرح الأشر إلى عثمان، فقدم إليه ثأباً، فقال له عثمان احل حيث شئت، فقال مع عبدالرحمن بن خالد، فقال ذلك إليك، فرجع إليه».

(٢) عجمته : عجم القوم عجمه ليدعم صلاته من خورم

وعلى اختلاف الروايات في تنقل هذه الفئه بين الكوفة والشام، وميما قالوه
وقيين بهم، لم يتغير موقف معاوية في جميع هذه الروايات، وهو موقف لرحل
الذي لا يبالي بعد أمانه على ولايته أن يحكم الفئه حيث نجت، وأن يبتلى بها
الخليفه بنجرة منه.

وقد تعاقب الحطب ونظر الخبيفة المحصور حوله يطلب الرأي من ذوي الرأي
بين خاصته وخاصة المسلمين، واجتمع عنده رهط منهم يوماً أشاروا عليه بما
بداههم ثم خرجوا فأمسك عثمان بابن عباس فقال له يا ابن عمي ويا ابن خالتي
إنه لم يبلغني عنك في أمري شيء أحب ولا أكرهه، وقد علمت أنك رأيت بعين ما
رأى الناس فمنعك عقلك وحلمك من أن تظهر ما أظهروا. وقد أحبيت أن تعلمني
رأيك فيما بيني وبينك، فاعتذر. قال ابن عباس يا أمير المؤمنين إنك قد ابتليتني
بعد العافية وأدخلتني في الضيق بعد السعة ووالله إن رأيي لك رأي من يجل منك
ويعرف قدرك وسابقتك ووالله لو ددت أنك لم تفعل ما فعلت مما ترك الخليفتان
قبلك. فإن كان شيئاً تركاه لأنه ليس لهما، علمت أنه ليس لك كما لم يكن لهما،
وإن كان ذلك لهما فتركاه خيفة أن يقال مديهما مثل الذي نيل منك، تركته لما
تركاه له، ولم يكونا أحق بإكرام أنفسهما منك بإكرام نفسك.

قال عثمان فما منعك أن تشير علي بهذا قبل أن أفعل ما فعلت؟ قال ابن
عباس وما علمي أنك تفعل ذلك قبل أن تفعله؟ قال فهب لي صمتاً حتى ترى
رأيي.

وخرج ابن عباس وبقي معاوية فسأله عثمان، فأجاب كما جاء في الإمامة
والسياسة «الرأي أن تناس لي بصرب أعماق هؤلاء القوم قل من؟ قال علي
وطلحة والزبير مال عثمان. سبحان الله! أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث
أحدثوه ولا دس ركيوه» قال معاوية فإن لم تقتلهم فإنهم سيقتلونك. قال
عثمان لا أكون أول من خلف رسول الله في أمته بإهراق الدماء

قال معاوية فاختر مني إحدى ثلاث خصال:

قال عثمان. ماهي؟

ها معاوية أرتب لك مائة أربعة آلاف من خيل أهل الشام يكونون لك رداءاً^(٣)
وبين يديك يداً

(٣) وهذه بكسر الراء المعون والداص.

قال عثمان: أررقهم من أين؟

قال: من بيت المال

قال عثمان: أررق أربعة آلاف من الجدود من بيت مال المسلمين لحرق دمي؟

لا فعلت هذا.

قال: فتأبىة.

قال: وما هي؟

قال: قرقهم منك فلا يجتمع منهم اثنان في مصر واحد، واضرب عليهم البعوث

ولندب حتى يكون دبر^(١) بعير منهم أهم عليه من صلاته

قال عثمان: سبحان الله! شيوخ امهاجرين وكبار أصحاب رسول الله

وبقية الشوري، أخرجهم من ديارهم وأفرق بينهم وبين أهلهم وأبنائهم؟ لا

أفعل هذا

قال معاوية فتأبىة

قال: وما هي؟

قال: احمل لي الطلب بدمك إن قتلت.

قال عثمان: نعم هذه لك إن قتلت فلا يطن^(٢) دمي.

هذه رواية للإمامة والسياسة، وفي سائر الروايات أن معاوية قال له غير ذلك

أخرج معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك مالا تطيقه قال لا أبتغي بجوار

رسول الله بدلاً

تلك حملة الآراء التي أشار بها معاوية على الخليفة، وما من رأى منها إلا

والسمع فيه ثابت لمعاوية غير ثابت لعثمان، وربما كان في معظمها ما يضره

ولا يجديه

فليس قتل علي وطلحة والزبير بالأمر بهي الذي يدع الشمر عن الخليفة،

وليس هو بالخطبة التي يحقارها معاوية لنفسه لو كان في موضع عثمان وقد

أعفى معاوية نفسه من التصييق على صعصعة ورهطه كما ضيق عليهم

عبدالرحمن بن خالد فليس من خصته التي يختارها لنفسه ويحمل تبعاتها على

(١) دبر وبمحتين. الجرح يكون في ظهر الدابة

(٢) يطن دمي، ظل معه بالنهوى ذهب دمي

عائقه أن يقتل ثلاثة من أقطاب الصحابة كعلي وطلحة والزبير، كما أشار على عثمان، وإسما يبيوء عثمان تبعاتها ويترك الأمر من بعده لمعاوية بغير مناس ينافسه عليها، بعد مقتل الثلاثة الذين كانوا مرشحين لها عند أهل الحجاز وأهل الكوفة وأهل مصر أما أهل الشام فهم في ولايته لا يعرفون أحداً غيره ينافسه باسمهم عند اختلاف المختلفين، وليس ثمة مختلفون إذا نفذ القضاء في الأقطاب المفتولين.

وأما الإشارة على عثمان بإقامة أربعة آلاف من خيـ الشام يحرسونه فهو تسليم للحجاز إلى يدي معاوية في حياة الخليفة وبعد حياته، ولا يقدر أحد على بيعه فيه عبر البيعة التي يرضاها، ولا تقع هذه البيعة أصلاً لمن يستحب لها أو لا يستحب.

والخروج من المدينة إلى الشام مع معاوية نقل العاصمة إلى دمشق، ويجعل القول الفصل بعد موت الخليفة لصاحب القول الفصل فيها، وما من أحد قط ينتفع من العمل بهذه النصائح غير معاوية في جميع الحالات.

وقد نقل الرواة والمؤرخون عن كل ناصح أنه أشار على عثمان بترك خصة من خطبه في السياسة العامة، ولم ينقل مثل ذلك عن معاوية في جليل من الأمر ولا يسير، ولم يقف مثل موقفه غير مروان بن الحكم الذي لا يملك أن ينهي عثمان عن شيء، لأنه كان سيد الشكوى وصاحب التبعات جميعاً في كل مأخذ من مأخذ الثوار على العهد كله والسياسة يجلبها، فإذا كان سكوت مروان عن النصيح بالنتعير مفهوماً متوقعاً فمثل هذا اسكوت من معاوية لا يفهم إلا على وجه واحد وهو أنه يعفى نفسه من تبعة النصيحة ليملى للخليفة فيما يرضاها، ويعلم أن التغيير الباع يضيقه في مقدمة الولاية المحسوبين على لعهد كله، وقد كان يتعهد للخليفة بكفايته أمر الشام ويسأله أن يفرض على الولاية الآخرين مثل ذلك اليوم فإن لم يقدروا مثل قدرته كان حقاً به أن خلفهم أو يغفر يديه من العمل والمشورة.

وأثبت ما ثبت من صفة معاوية بتلك المطالب التي عرصها على الخليفة في شته مطالبه أن تكون له ولاية الدم بعد مقتله، فإنه بمثابة ولاية العهد بان صاحب الأمر إذ كان القصاص إنما يتولاه القائم بالشرعية حيث تقام حدود.

الدين، ولم يكن عثمان ليخشى عليه القتل من فرد يعتدي عليه غيلة فيكون عمر
 ولى الدم أن يقتاده إلى الحاكم القائم بالشرعية، ولكنه خشى عليه القتل من
 جماعات ثائرة لا يتولى إدارتها وإقصاها منها غير صاحب سلطان أقوى من
 سلطانها وسلطان من تؤيده ونطبعه على شرطها، فإذا كان معاوية قد طلب ولاية
 الدم بعد مقتل عثمان، فقد طلب ولاية العهد وفارقه وهو يعلم أنه مقتول.
 وأوشك الخليفة أن يقتل، فهذا نظريا في أرحاء العالم الإسلامى يومئذ لم يجد
 أحدا أقدر على سجدته من معاوية، لأنه الوالى المستقر فى ولايته منذ عشرين سنة
 يقصى عنها كل من يعاديه ويبقى فيها كل من يواليه، وغيره من الولاة فى ذلك
 العهد بين معزول أو معتزل أو مهدد من سلطان، كما هدد الخليفة فى عاصمته، ومن
 كان حول الخليفة من سراوات^(٦) المدينة فليس فى وسعه أن يخلصه بقوة أقوى من
 الدولة وحراسها وأشياعها، فإذا جمع السفهاء حماهم انشأ يعلب الدولة على
 قوتها وهيبته! فحرى ألا يصده زاجرو ولا ناصح ممن لا يملكون غير الزجر
 والنصيحة.

وأما كان القول فى السراوات الآخرين فواجب معاوية واضح لا لبس فيه، وليس
 مما يفعله من هذا الواجب أن الخليفة أبى عليه إقامة حبش دائم إلى حواره يرققه
 من بيت المال، فإن عمل الحبش الدائم غير عم النجدة العاجية، ولا يلام والى
 الشام على نجدة عاجلة بعد أن طلب الخليفة النجدة من الولاة، ولو أنه كان يلام
 على ذلك، لكان اللوم أهوا عليه من ترك الخليفة لقاتليه يسفكون دمه وهو معتذر
 بأمر صدر إليه فى حال غير هذه الحال.

لقد كان ذرو الجرأة من المعارضين لعثمان يلقون معاوية بهذا اللوم، كلما
 أخذهم باللوم لأنهم لم يصبروه، ومن هؤلاء أبو الطفيل عامر بن وائلة الصحابى
 كما جاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطى:

قال له معاوية أنست من قتلة عثمان؟ قال أبو الطفيل: لا.. ولكنى ممن
 حضروه فلم يصبروه.

قال: وما معك من نصره؟

(٦) سراوات: جمع سراة، وسراوات القوم، أشراقتهم وسابقتهم.

قال: لم تنصروه المهاجرون والأنصار
فقال معاوية أما لقد كان حقه واجباً عليهم أن ينصروه.
فقال أبو الطفيل: فما منعك يا أمير المؤمنين من نصره ومعك أهل الشام؟
فقال معاوية: أما طلبى بدمه نصرة له؟

فصحب أبو الطفيل ثم قال: أنت وعثمان كما قال الشاعر
لا ألعيبك بعد الموت تدبني وفي حبابي ما رودني رادى
ووقعت الواقعة ومات الخليعة قتيلًا وذهب معاوية بطالب بدمه وينكر على
على بيعته؛ لأنه لا يسلمه قتلة عثمان، ممن يذكرهم إجمالاً أو يسميهم
باسمائهم، وأن الأمر كله بعد حين إلى معاوية يصبح بهؤلاء ما يشاء، فلم يأخذ
واحدًا منهم بجريرة مشهودة ولم يحاسب أحدًا على جريرة مستورة تتطلب
الإشهاد، وكان يلعب الرجل منهم فلا يريد على أن يسأله كما سأل أبا الطفيل.
ألسنت من قتلة عثمان؟ ثم يصرفه في أمان، وقد يسكت عن سؤاله ويصرفه مروباً
بالعطاء

وظهر من مبدأ الحصومة أن الغيرة على عثمان لم تكن تلك الغيرة اللاعبة^(٧)
التي تثير انثائرة وتصرم الحروب؛ فإن معاوية قد حالف عمرو بن العاص
وكافأه بولاية مصر، وهي ولاية عزله منها عثمان ويكنه^(٨) بذكرها يوم صاح به
بين الجموع المندمرة يسأله التوبة والاستعفار، وكاد الرواة يجمعون على كلمة
نقلت عن لسان ابن العاص فحواها أنه كان يلقي الأعرابي في البادية فيحرضه
على عثمان فإن لم يصح عن ابن العاص أنه قاتل تلك الكلمة فموقفه من فتنة
عثمان كموقف دوى الرأي جميعاً ممن كان معاوية يحاسبهم على تركهم عثمان
بغير نصير، وكان في وسعهم كما قال أن ينصروه
ولم يخف هذا الموقف الذي لا حفاء به على أبناء عثمان وبناته، فإنهم كانوا
يربن معاوية فيلقونه بالكاء ويذكرون أباهم؛ لينكروه بدمه المظلل ووعده
بالثأر به، ثم سكوته عن الثأر بعد أن أمكه منه صالح يكن في إمكان أحد من
المطلوبين به في رآيه.

(٧) اللاعبة: يقال: هوى لاعج أى محرق.

(٨) يكنه: قرعه وجمعه ولامه أشد اللوم.

قال ابن عبد ربه في العقد الفريد. وقال غيره مع اختلاف قليل في لسان.
«قدم معاوية المدينة بعد عام الجماعة فدخل دار عثمان بن عفان، فصاحت
عائشة بنت عثمان وبكت ونادت أباه، فقل معاوية يهينه أخي، إن الناس
أعطونا طاعة وأعطيدهم أمناً، وأظهروا لهم جماً تحت عصب، وأظهروا لنا ذلاً
تحت جعد، ومع كل إنسان سيف ويرى موضع أصحابه، فإن نكثناهم نكثوا بنا،
ولا ندري أعلينا نكور أم لنا؟ ولأن نكوي ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن
نكوي امرأة من عرض^(٩) الناس».

فالمطالبة بدم عثمان إنما كانت قضية فائمه حين كانت لازمة للتحريض
علي علي وبت الدعوة والتمكين لمعاوية، فلما تمكن واستطاع ما لم يكن في وسع
علي أن يفعله سكت عن الثأر وحديثه، إلا ما كان من قبيل الحوار العقيم في
المحافل، وقيل من معسه العذر ضعيفاً هزلياً ولم يكن يقبله قوياً معبراً بالواقع
والهيئة ممن لا لوم عليه

ذلك أبصر ما يقال عن حقيقة الموقف من قضية عثمان ومطالبة معاوية بدمه،
كل ما فعله معاوية من نصرة عثمان قبل مقتله وبعده فهو ثابت النفع لمعاوية
عبر ثابت النفع لعثمان، ولا يجري وراء النيات وإي كان للمؤرخ حق في النظر
إليه قد يحمده منه حيث لا يحدد من القصاء، فإن المؤرخ مطالب بتقويم أقدار
الرجال وتفسير أسرار الحوادث والتعريف بالأخلاق والضمائر، ولا ضرر من
استقصائه لما وراء الظواهر والدعوات، بل الصبر كل الصبر أن يأخذ بالظواهر
والدعوات دون استقصاء

وقصاء التاريخ في موقف معاوية من عثمان أنه موقف يسقط كثيراً من التهم
التي كان يكيلها لحصومه، ويسقط كثيراً من الأعذار التي كان ينتحلها لنفسه،
ويوجب على المؤرخ أن ينفذ من وراء التهم والمعاذير إلى تفسير واحد لوقائع
الثورة التي ثارها معاوية باسم عثمان فإن أصدق البواعث لها أنها ثورة في
طلب الملك أعوزتها الحجة فالتمسها من مقلد الخليفة الشهيد.

(٩) عرض. يضم للعين. يقال يهين من عرض الناس أي من العامة.

النشأة والتكوين

ولد معاوية لأبوين عريضين قويين، أخبرهما عندما قليلة متقطعة، ولكنها من نوع الأخيار التي تنل بالصحة العارضة، وبغنى القليل منها عن الكثير في رصف الطباع والأخلاق، فتعرف منها أي رجل وأي امرأة كان أبواه من ارحال وإنساء. من أبناء الحاهلية عن النساء أن هند بنت عتبة أم معاوية كانت من نساء الأسر التي تعودت أن تستشير بناتها في أمر رواحهن، وقد خطبها اثنان، فقام لها أبوها «أما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش» إن تابعته تابعك، وإن ملت عنه حط إليك، تحكمين عليه في أهله وماله.

وأما الآخر فعوسع عليه منطور إليه في الحسب والنسب والرأي والأرياف، مدره^(١) أرومته وعز عشيرته، شديد الغيرة لا ينام على ضعة، ولا يرفع عصاه عن أهله.

فقالت: «يا أبت الأول. سيد مصباح للحره، فما عست أن تبين بعد إبانها ووضع تحت جناحه إذا تابعتها بعلها فأشرت^(٢) وخافها أهلها فأمنت؟ سمع عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالتها فإن جاءت بولد أحضفت، وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت، فاصو ذكر هذا عني ولا تسمه على بعد وأما الآخر فبعل الفتنة الحريه^(٣) للحره العقيلة»، وإني لأخلاق مثل هذا الموافقة، فزوجنيه.

وتعلم من كلام هند أنها امرأة قوية الأنوثة يرصيها أن تكون روجه لرجل جدير بالمهايه والطاعة ولا يرصيها أن يكون روجه لبعبة هي يديها مطواعاً لأمرها

ولم يرد في أخبار هند خبر غير هذا إلا كان فيه إيذنة عن حاسب من حواسب هذه الأنوثة القوية، ربما بلغ في بعض أحوالها مبلغ الوحشية، ولكنه على هذا يطر وحشية أنثوية تشاهد من صراوة الإيمان كما تشاهد من صراوة الحيوان كانت تلقب بأكلة الأكباء. لأنها أكلت كبد حمزة عم النبي - عليه السلام - بعد أن قتل رجالها في وقعه بدر وحرى المرأة على رجالها شديد بشدد مع اشتداد

(٢) مماشرت، بطرقت.

(٤) العقلة الكريمة المدورة من التسم

(١) مدره. مدره الغوم رعيم الغوم وخطيبهم

(٣) الحريه المرأة الصبية البلويه السكون

أثوئتها، فإذا كانت في هذه المثلة^{٥٠} وحشية أنثوية، تشتفى بها المرأة إذا جمع بها
حزبها وأدھلها عن صوابها، وليست مما يشتفى به أقوياء الرجال.

ولم تنس هند حزبها على رجالها في حصرة أبي - عليه السلام - إذ جاءته
مع غيرها من النساء يأخذ عليهن عهد البيعة
قال صلوات الله عليه، تباعين على ألا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن إلى
أن قال: ولا تزنين.

قالت: يا رسول الله، هل تزني الحرة؟

ثم قال: ولا تقتلن أولادكن

فقالت: أما الأولاد فقد ربيناهم صغاراً وقتلتهن يوم بدر كباراً، فأنت بهم أعلم
وإن سألها: «هل تزني الحرة؟» لم تترك الأخبر التي قلنا إنها تدل بالصحة
العارضة ويغني القليل منها عن الكثير.

إنه سأل يدل على الأنفة من الرنى. لأنها كرامة جاء، ولأن الرنى خلة من
خلال الإماء والسبايا، لا تعهد في الحرائر الكريمات، هالأنفة من الصعة هذا أكبر
من الإعراض عن الرذيلة، وقصنها مع زوجها - إمانتها بتهمة الرنى - لا تقبل
عندها العفوان ولا تقبها البراءة منها، وإن شهد بها من تقبل شهادته في
الجاهلية ولا يظهرون على البراءة حجة أقوى عندهم من تلك الشهادة.

أخرج لخرائط في الهوائف عن حميد بن وهب قال:

كانت هند بنت عتبة بن ربيعة عند الفاكه بن المغيرة، وكان من فتيان قريش،
وكان له بيت للضيافة يقشاه الناس من غير إذن. فخلا البيت ذات يوم، فقام
الفاكه وهند فيه، ثم خرج مهاك لبعض حاجاته، وأقبل رجل ممن كان يغشى
البيت فواجه، فلما رأى المرأة ولَّى هارباً فأبصره الفاكه فانتبه إليها فضربها
برجله وقال: من هذا الذي كان عندك؟ قالت: ما رأيت أحداً، ولا انتبهت حتى
أنبهتني فقال لها: الحق بأهلك وتكلم فيها الناس فخلا بها أبوها، فقال لها
يا بني، إن الناس قد أكثروا بك فأبشيتي بذلك، فإن يكن الرجل صادقاً دسست
إليه من يقنله فسقط عا المقالة، وإن يكن كاذباً حاكمته إلى بعض كهان
اليمى، فحلفت له - بما كانوا يحضرون به في الجاهلية - أنه كاذب عليها فقال

٥٠ مثله بالعم التكوين.

عتبة للفاكهة إنك قد رميت ابتنى بأمر عظيم محاكمتي إلى بعض كهان اليمن. فخرج الفاكه في جماعة من بني مخزوم، وخرج عتبة في جماعة من بني عبد مناف ومعهم هند ونسوة معها تأنس بهن، فلما شارفوا البلاد تنكرت حال هند وتغير وجهها، فقال لها أبوها يا بنية، إني قد أرى ما بك من تغير الحال، وما ذاك إلا لمكروه عندك، قالت لا والله يا أبتاه ما ذاك لمكروه ولكني أعرف أمكم تأتون بشراً مخطئاً ويصيب، فلا آمنه أن يسمى بسيماء تكون على سيرة^(٧) في العرب، فقال لها، إني سوف أختبره لك قبل أن ينظر في أمرك فصغر^(٨) بقرسه حتى أدلى ثم أدخل في إحليله^(٩) حبة من لحطة، وأوكأ^(١٠) عليها سير، وصبحوا الكاهن؛ ففجر لهم وأكرمهم، فلما تعدوا قال له عتبة إنا قد حنناك في أمر، وقد خبات لك خبيثاً أختبرك به فانظر ماهو؟ قال برة في كمره قال. أريد أبين من هذا، قال حبة من بر في إحليل مهر، فقال عتبة صدقت. انظر في أمر هؤلاء النسوة، فحعل يدنو من إحداهن، ويصرب كتفها، يقول انهضي، حتى إذا من هند فضرب كتفها وقال انهضي غير رسحاء ولا زامية، ولتلدن ملكاً يقار له معاوية فنظر إليها الفاكه فأخذ بيدها فبشرت ينها من يده وقالت إليك. والله لأحرصن أن يكون ذلك من غيرك، فتزوجها أبوسفیان فجاءت بمعاوية وقصة الكاهن هذا تسقط بحداخيرها ويبقى من خير هند مع زوجها أنه اتهمها فأغضب أن تعود إليه بعد أن أراء هو أن يعيدها لأنها تغضب لكرامتها أن تعيش مع رجل ينزلها دون منزلتها من حرائر النساء. وينقل عنها في أساطير متعددة أنها بشرت بسيادة معاوية على قومه، فقالت. ثكلته إن لم يسد إلا قومه

قال الشافعي فيما رواه الطبري «قال أبو هريرة رأيت هذلاً بمكة كأن وجهها فلقه قمر وحلقها من عجزتها مثل الرجن الحساس، ومعها صبي يعقب، فمر رجل فنظر إليه فقال إني لأرى غلاماً إن عاش ليسود قومه فقالت هند، إن لم يسد إلا قومه فأمامه الله وقال محمد بن سعد أنبأ علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف، قال نظر أبوسفیان يوماً إلى معوية وهو غلام، فقل لهدي إن ابني

(٧) صغر بقرسه معناه يشرب عند ورود الماء

(٩) أوكأ: وكأ القرية شد وأسها يرباط

(٦) بنية: عار

(٨) لصين: مجرى البول

هذا لعظيم الرأس، وإيه لخليق أو يسود قومه. فقالت هند قومه فقطة نكلته إن لم يسد العرب قاطبة. فلما ولى عمر يزيد بن أبي سفيان ما ولاه من أمر الشام، خرج إليه معاوية، فقال أبوسفيان لهند كيف رأيك؟ صرابتك تأساً لأبيي. فقالت إن اضطربت خيل العرب فستعلم أين يقع اينك...»

وربما تسافرت الأخبار في كتب الأدب والتاريخ بغير هذه الأحاديث عن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان وأم معاوية، ولا حاجة إلى نقلها أو تلخيصها جميعاً، لأنها تتفق في صفة هند بالوسامة والحسامة والاعتداد بالنفس والحسب، وإما ثرافق ما نسميه اليوم «بالشخصية» الملحوظة بين ذويها وقومها، وليست من عداد الزوجات والأمهات المعسيات في الغصار، كما كان سائر النساء في بيئتها والقصة التي بدأنا بها هذا الفصل تبدي لنا أبا سفيان في حياته البيتية على صورة لم تذكر في قصة أخرى، فنعلم أنه سيد بيته، كما كان سيد عشيرته «وأنه شديد الغيرة لا يرفع عصاه عن أهله».

وبقية القصة الأخرى تبدي لنا أبا سفيان في صورة من صور الحياة البيتية، يقول من شاء إنها حياة تقدير، ويقول من شاء إنها حياة تفتير.

فقد وصفته هند بأنه رجل «مسبك»^(١٠) وأنها «كانت تصيب من ماله الهبة والهنة»^(١١) ولا تدري أكان ذلك حلالاً لها أم حراماً.

وكان أبوسفيان شاهداً، فقال أما ما أصبت منه فيما مضى فأنت منه في حل. أما كلام عتبة - في غير ما تقدم من صفات أبي سفيان - فهو من المشهور المقرود في أبناء الجاهلية والإسلام، فقد كان سيداً «موسعاً عليه، منظوراً إليه في الحسب الحسب والرأي الأريب، جذره أرومته وعر عشيرته». كما كان عتبة في تخييره بين الرحلين.

فمعاوية إذن ينتمي إلى أبوين قويين في عشيرة قوية، ولعله ورث من جانب أمه أكثر مما ورث من جانب أبيه، فهو أشبه بها في تكوين جسمه، وأشبه بها في وسامه ملامحه، وأشبه بأصولها المعروفة في خلق الأناس وبطء العصب، وإينار لمطاولة والمراوغة على المعارك والحروب.

فأبوها عتبة كان قائد قريش في وقعة بدر، وكان رأيها الذي أصر عليه، ولم

(١٠) مسبك: يهزل.

(١١) الهبة: الشيء.

يُتنبه عنه عبر إجماع محالفيه أن تنصرف قريش من غير قتال، وأن يتركوا كل رجل منهم ومن المسلمين يرجع إلى عشيرته، ويضطروا ما عسى أن يكون من شأنهم جميعاً بعد ذلك.

وقد يرى بعض الناظرين في الورثة أن المرأة التي اشتهرت باسم «أكلة الأكباد» لم تترك الأناة ويطء الغضب من أبيها، ولم تترك ابنها هذه الخليفة فيما أورثته من خلافتها

وإنه لراى فيه نظره أو هو جدير بالنظر، فإن هذه الضراوة ليست من تلك الأناة

ولكننا حريون أن نذكر أن «الغيظ» غير الغضب في دخيلته وهي مدته وأجله. فقد يشتهر الإنسان بأنه من أهل «الغيظ» ولا يشتهر بأنه من أهل الغضب، وقد يدور الغضب لساعته، ويبقى لغيظ سنوات في طوية صاحبه هذا فيما ينطوي عليه الشعوران.

وغير هذا أن لوعة المرأة على رجالها تخالف لوعة الرجل على أقرانه وأن شعاء اقل بأكل كبد القتل جماع أنثوى لا يصارعه حماح مثله في الرجال، فلعلها في صول الأناة كأبيها أو كابتها، ولكنها في مثل هذه اللوعة لا تشبه هذا ولا ذاك ولا يشبهها هذا ولا ذاك

ويحذر مع هذا كله أن يكون معاوية وارثاً يعصر الخلق من حده لأمه وغير وارث هذا الخلق منها، لأن الورثة قد تنقطع بين الجسير، فتكون الخليفة الموروثة في الجدود ولا تكون في الأمهات.

أما الورثة التي لا شك فيها، فهي وراثة تكويبه الحسدى من أمه وهي وراثة صالحا أشار إليها معاصروه وذكر فيهم سم أمه، ولم يذكروا اسم أبيه، وقد تركل من فرط الجسامة في كهولته، ولم يكن لأحد من سفيانيين مثل هذا البره في الكهولة أو الشباب.

وعلاقة هذا الكويين بأخلاقه وأعماله تتصح من سياسته كلها في أيام الخلافة وأيام الرلايه من قبلها، فإذا صدق عليها وصف عاب عليها، فوصف السياسة «الحاسنة» التي يدير وتدير وتنوك سماعى وأرحوق لشعالمين المأمورين

كان معاوية «أبيض جميلًا طويلًا أخلق» وقد أصابته لوفة^(١٣) في آخر عمره فكان يستر وجهه»

وروى الصيرى بإسناده عن ابن عمرو أنه قال «ما رأيت أحدًا أسود من معاوية»، وسئل «ولا عمر؟» فقال «كان عمر خيرًا منه وكان معاوية أسود منه» ونقل عن العوام بن حوشب أنه كان يقول «ما رأيت أحدًا بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية قيل «ولا أبو بكر؟» فقال «كان أبو بكر وعمر وعثمان خيرًا منه وهو أسود»

وهذا السود ليس بالغريب من سمات رجل ورث السيادة من أبيه، وباط بها حقه وحق عشيرته من الرئاسة، ودارت مساعيهم وظواهرهم وباطونهم كلها على هذا السود وعلى الغيرة عليه حيلًا بعد حين.

وقد بدا أن هذا كانت تعاف الزنى أنفة ولا تعافه ورعًا وتزاهة، ولا تخطئ إذا فهمنا من بعض كلام أبي سعيد أنه كان يتورع عن الكذب بين من يعلم كذبه، لأنه يأبى لمروءته أن يصغره أحد لكذبه وإن لم يعلن ذلك بلسانه وهكذا قال حين سئل في بلاد الروم عن النبي - عليه السلام - فإنه سمع سائله يحذره من الكذب فأبى أن يكذب على مسمع من شهود سكوت

ومدار الطموح كله في نفس معاوية على هذه الخصلة التي جعلت تراث انقوم كله رهينًا بمراياهم الاجتماعية، وجعلت هذه المرابا كلها رهينة بمظاهر الرئاسة والسيادة.

ونحن نعرف ما تعمه في صغره مما كان يحمله في كبره، إذ لم تحر عدة لرواة والمؤرخين في الجاهلية بالتحدث عن الأطفال الصغار، إلا ما جاء عرضًا في أثناء الكلام عن آبائهم وكبارهم، ولا استثناء في ذلك لأبناء الأسر والبيوتات ومن ترشحهم أحسابهم لمكان الرئاسة بعد سوغهم مبلغ الرحال، وبعده لم يكن همًا من إرواه والمؤرخين ومنتصاريًا لأمر أولئك الأطفال، وإنما كان سكوتًا منهم عن أمر معلوم على وجه التعظيم يشترك فيه الناشئة من أبناء البيوتات جميعًا ولا يتفرد فيه أحد منهم بتعليم خاص لتوظيفة خاصة

وتدعم معاوية القراءة والكتابة والحساب، وتنفق الأخبار على كتابته للنبي

(١٢) أحفاد بني هاشم بن عبد المطلب

(١٣) لوفة: تشويه

عليه السلام - ولا تنفق على كتبه الوحي، ولا على حفظه لآيات من القرآن تلقاه من النبي كما كان كتب الوحي يتلقون الآيات لساعتها، والأرجح أنه لم يكن معروفاً بحفظ شيء من كتابة الوحي في أيام جمع القرآن الكريم، ولو علم عثمان - وهو من ذوي قرابته - أن عنده مرجعاً من المراجع يثوب إليه لرجع إليه كما رجع إلى غيره.

وتعليم معارفة فيما عدا ذلك من سماع أشعار العرب وأمثالهم، والإلمام بأخبار أيامهم، كتعليم غيره من عليّة قومه، لا أنه كان على شغل خاص بالاستماع إلى سير الملوك ووقائع الأمم وأطوار الدول العابرة، وربما فرئت له هذه السير من كتب يونانية أو فارسية يقرؤها له من يعرف لغاتها، وقد سمع بعبيد من شربة الجرمي وعلم أنه يعي تواريخ التبابعة والأكاسرة، فأرسل يستقدمه من صنعاء وأمره بكتابة ما وعده من تلك التواريخ، فآلف له كتاب «لملوك وأخبار الماصيين» وهو أول كتاب يحدث عن فحواء

وبلاغة معارفة في كلامه بلاغة سوية لا تعلو ولا تسف عن بلاغة أمثاله ونظرائه يبين عما يقصد، ويحتفل بالقول، فيبغاد له طبعه الميسر للعرى الفصيح من أبناء عصره، ومن رسائله المحفوظة رسالة إلى زياد بن أبيه يتوعده فيها، ويدعوه إلى الطاعة وأخذ البيعة ممن يليه، ويقول منها «إنك عبد كفرت بالنعمة واستدعيت النعمة، ولقد كان الشكر أوى بك من الكفر، وإن الشجرة لتصرف بعرقها وتتنزع من أصلها، لا أم لك، بل لا أب لك، قد هلك وأهلك وطنت أنك تخرج من قبصتي ولا بنالك سلطاني، هيهات! ما كل ذي لب يصيب رأيه، ولا كل ذي رأي يصح هي مشورته أمس عبد واليوم أمير خطة ما ارتقاها مثلك يابن سمية، وإن أذاك كتبني هذا، فخذ الناس بالصاعة والبيعة وأسرع الإجابة، فإني إن فعلت هدمت حقت وبفسك تداركت وإلا اختطفتك بأصعف ريش، وتلتك بأهون سعي، وأقسم قسماً مهزوماً ألا أوتى بك إلا في رمارة^(١٤) تمشي حافياً من أرض فارس إلى الشام، حتى أقنمك هي لسوق وأبيعك عيداً، وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجت منه، والسلام».

(١٤) رمارة، السجور وهو قلامة سجن في عنق الكلب

ومن ردوده المحفوظة وده على الإمام على حين دعه إلى البعده بقول فيه .
 «، لعمرى لو بايعك القوم الدين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان، كنت كأبى بكر
 وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين، ولكنك أعريت بعثمان المهاجرين وخذلت
 عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلا لعالك
 حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كنت شورى بين المسلمين، ولعمرى ما
 حجتك على كحجتك على طلحة والزبير لأنهما بايعاك ولم أباطعك، وما حجتك
 على أهل الشام كحجتك على أهل لعراق لأن أهل العراق أطاعوك ولم يطعك أهل
 الشام. وأما شرقك من الإسلام وقربتك من رسول الله ﷺ وموضعك من قريش
 فليست أدفعه».

وكان يتكلم مرتجلاً فيحسن الجواب في مقامه، ومنه جوابه لعدي بن حاتم
 حين أنه يدعو إلى بيعة على، فسمع منه دعوته على ملأ من صحبه، وأجابه
 قائلاً

« كأنما جئت جهداً ولم تأت مصلحاً، هيهات يا عدى كلاً والله، إنى
 لأبى حرب ما يجمع لى بالشنان^(١٥)، وإنك والله لمن المجلبين على ابن عفان -
 رمى الله عنه - وإنك لمن قتلته وأرحو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل به
 هيهات يا عدى بن حاتم! لقد حلت بالساعد الأشد».

وكان يحتفل بتحصيل الكلام، فيقول كما قال في صفين «الحمد لله الذى دما
 فى علوه وعلا فى ديوه، وظهر وبصر، وارتفع فوق كل دى منظر، هو الأول والآخر،
 والظاهر والباطن، يقضى فيفصل، ويقدر ميعفر، ويفع ما يشاء، إذا أراد أمراً
 أمضاه، وإذا عزم على شيء قصاه، لا يؤامر^(١٦) أحداً فيما يملك، ولا يسأل عما يعجل
 وهم يسألون والحمد لله رب العالمين على ما أحببت وكرهنا وقد كان فيما
 قصاه الله أن ساقبت المقادير إلى هذه النقطة من الأرض، ولقت بيننا وبين أهل
 العراق فحن من ابنه بمضر، وعد قال الله سبحانه وتعالى «ولو شاء الله ما
 اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد» انظروا يا أهل الشام! إنكم عدنا تلقون أهل العراق،
 فكونوا على إحدى خصال ثلاث إما أن تكونوا طلبتم ما عند الله فى قتال قوم

(١٥) الشنان، جمع ش بالفتح وهو القرية المنق الصغرى

(١٦) يؤامر يشاور

مغوا عليكم فأقبلوا من بلادكم حتى نزلوا ببيعتكم^(١٧)، وإما أن تكونوا قومًا
تطلبون بدم خليفتم وصهر ببيكم، وإما أن تكونوا قومًا تدبون^(١٨) عن نسائكم
وأبنائكم فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل، وأسألوا الله لنا ولكم النصر، وأن
يفتح بيننا وبين قوماً بالحق، وهم خير الفاحين»

وهذه خطبة ربما أضيف إليها بعض العبارات المستحدثة بعد عصرها،
كالمقابلة بين العدو والدين، وبين القضاء والقدر، ولكنها فيما عدا ذلك لا تستغرب
من زمانها ولا موضعها، وقد خطب معاوية لأشك من ذلك، وما بقي من خطبه
غير مستغرب من زمانه وموضعه، فهو في طيقة هذه الخطبة وعلى نهجها، ومنه
آخر كلامه قبل موته حيث قال:

«أيها الناس إن من نزع قد استحصد، وقد طالت عليكم إمرتي حتى مللتكم
ومللتكم، وتميت فراقكم وتمنيت فراقى، وإني لا يأتىكم بعدى إلا من هو شر
منى، كما لم يأتكم قبلى إلا من كان خيراً منى، وإن من أحب لقاء الله أحب الله
لقاءه. اللهم إني أحببت لقاءك فأحِبَّ لقائى»

وتحفظ به الكلمات من جوامع الكلم ومن التعبير الموبق^(١٩) الجميل، ولكنها
غير كثيرة، ومنها قوله: «إن السطان يغضب غضب الصبى، ويبض يطش الأسد»،
وقوله: «لو كان بينى وبين الناس شعرة ما نقطعت، أرخياها إذا شدوها، وأشدّها
إذا أرخوها»

ودخل عليه عمرو بن العاص فرأه يرقص إحدى بناته، وكأنه لمع منه تعجباً
لفعله، فنظر إليه وهو يقول: هذه تفاحة القلب.

فلم يكن من المفحمين^(٢٠)، ولا من ذوي السحية فى القوس، وقد سمع غير مرة
يقول ما معناه إنما شيبى حشر الخطأ فى الحواب
وبدر بين معاصريه من المبهين من لم تنسب إليه نبات من الشعر تصح أو لا
تصح فى النقل والرواية

وقد نسب إلى الحسن بن على - رضى الله عنه - أنه عيّر أبياتاً كتب بها إلى
أبيه يحذره من الإسلام، وهى

(١٧) بيعتكم، بضم القوم مدحهم.

(١٨) تدبونه تنافون.

(١٩) الموبق من الكلام المحس المعجب.

(٢٠) المفحمين. أمم الرجل خصه أسكت بالحجة.

يا بصخر لا تسلمن يوماً فتفضحننا بعد الذين بهدر أصبحوا مرقا
خالي، وعمى، وعم الأم ثالثهم وحنظل الخير قد أهدى لنا الأرق
لا تركن إلى أمر تكلفنا والراقصات به في أمرنا للخرقة^(٢١)
فالموت أهون من قول العداة لقد حاد ابن حرب عن العزى إذا فرقا^(٢٢)

ولحسن أحق أن يتحرى ما يحفظه وما يسيه وما كان معاوية على مجده
من أبيه فيكتب إليه، ولا كان من دأب معاوية أن يصيح أباه وقد عاش إلى آخر
أيامه يشاوره ولا يبرم أمراً دونه، وهي - بعد - أبيات ليست من نفس الشعر في
صدر الإسلام ولكنها تشبه المفطوعات التي هاضت بها الكتب الموضوعة في
حرب صفين، وتكاد تلقى في روع النقارئ أنهم في ذلك العهد لم يفهموا بسطر من
لنثر إلا ومعه سطر منظوم.

ومن قبيل هذه الأبيات أبياته التي قيل إنه بعث بها إلى ابن الزبير مع رسالة
يدعوه فيها إلى مبايعة يزيد بولاية العهد، وهي

رأيت كرام الناس إن كلف عنهمو بحلم رأوا فضلاً لمن قد تحلف
ولا سيما إن كان عفواً بقدره فذلك أحرى أن يحل ويعظم
ولست بذى لوم فعذر بالذى أتاه من الأخلاق ما كان أما
وكن غشاً لست تعرف غيرى وقد غش قبل اليوم إبليس آدم
فما غش إلا نفسه في فعاله فأصبح ملعوناً ومعد كان حكرها
وانى لأخشى أن أنالك بالذى أردت فيخزي الله من كان أضلعا

ففي هذا الشعر من سق عصره، ولا من عادات رجاله في مقام كهذا المقام،
ولكن الأمر الذي يعهد فيهم مع روايتهم للشعر والمثنى أنهم يستشهدون بالأبيات
في موضعها ويتأسون بها في موقعها وكذلك قيل إن معاوية ذكر أبيات ابن
الأطباية ساعة فراره من المعركة ليلة الهرير، معاودة الثبات وجعل يترنم بها
ويسمعه من حوله يعيد منها

وقولي كلما جشأت وجاشت^(٢٣) مكانك تحمدي أو تستريحي
وقيل إنه تمثّل شعراً وهو يجود بنفسه، فقال

(٢١) الخرق: بفتح نحاء والراء: الدهش من الفرع والحياء والتحير
(٢٢) جشأت: جشأت نفسها ارتفعت برئارت الخيء.

وتحلى بالشامتين أريهمو أنى لرب الدهر لا أتضعص
ثم قال.

وإيا العذبة أنشبت أظفارها أفيحت كل تميمة^(٧٤) لا تسفع

وقيل غير ذلك مما لا داعى للشك فيه إذا كان محصوله كله أنه كان يحفظ
الأشعار والأمثال، ويستشهد بها فى مواطنها على سة بطرائه من العرب أجمعين.
ولنا بعد أن نعلم أنه نشأ فى الصحابة نشأة أبناء الأسر وأصحاب الرئاسة
الموروثة، وتعلم ما يتعلمونه، وتدريب على دروسهم التى ألفوها، إلا أنه كان إلى
تربية التجارة والتدبير أدنى منه إلى تربية الفروسية والنصال، فلم يؤثر عنه من
فعال الفروسية يعد بلوغة مبلغ الرجال فقل يميزه بدرجة خاصة على فنونها
المعروفة فى رمنه كالمسابقة، وإصابة الهدف، وأسبق على منون الحصن،
والصعود للأقران فى العيارزه، وعل تربيته الفروسية بم تزد على القدر
الضرورى الذى يعاب الجهل به ولا يبرر إلى مكان التنويه والتعظيم

وهذا القسط من التربية كاف لسروات الجاهلية من العاملين فى مثل عمله
وعص أبيه، وهو تدبير التجارة القرشية، وحمل اللواء لحمايتها، والاستعانة بمن
يصلحون لحراستها وذنور عندهم بالسلاح إذا وحب الذب عنها

أما بعد الإسلام فهذه التربية، أو هذه الشاة، تقتزن سؤال آخر عن نصيبه من
فقه الدين والثقافة الإسلامية، ويكاد يدعو الأمر إلى سؤال غير هذا السؤال فى
أمر الدين من أسسه، فإن ناساً من العلاء قد شككو فى إسلامه، بل جرموا
بإسلامه على دخله ومداهنة، فهل كان لهذا الشك من مسوع فى عمله أو كلامه
بعد إسلامه مع أبيه فى عام الفتح كما هو معلوم؟

لعد تأخر إسلامه كما تأخر إسلام أبيه، فأسلف معاً فى عام الفتح وهو فى
نحو الثالثة والعشرين، وليس هذا التأخر بموجب للشك فى عقيدته، لأنه يحدث
فى كل دين وفى كل دعوة، وينقسم انعاس فى جميع الدعوات اسيية والفكرية
إلى مبادرين ومقردين ومتلبيين متلكتين لا يستجيبون بها إلا مع آخر مستحىب
ولا ندر بعد ذلك أن يكون المتأخر أصدق إيماناً وأثبت عقيدة من المبادر

(٧٤) تميمة: هزات، كان الاعراب يعلقونها على أولادهم تنقى قلوبهم.

المتقدم، وليس من الجائز أن تتحد العادة المطردة في الاستجابة للدعوات حجة على تقيصها، فما كانت الدعوات قط إلا هكذا أو لا تكون

ومعاوية بعد إسلامه لم تثبت عليه كلمة ولا فعلة تنقص تصديقه بدينه ورعايته لعروصه وشعائره كان يصلي، يصوم، ويركع ويحج، ويقرأ القرآن، ويستمع إليه، وكانت كل لحظة ماض بها وأحصيت عليه في مرض الوفاة تدل على الإيمان ببقاء الله، وعلى الإيمان بالجبراء في العالم الآخر، ومما تواتر من أحاديث الملائكة له في ساعاته الأخيرة أنه كان يحتفظ بقلامة من طفر رسول الله وشعرات من لحيته الشريفة، أخذها من وصوته، ومارال محتفظاً بها حتى أوصى بأن تدفن في كعبه، وكل أولئك قد يسرى إليه الظن ممن تغالبه الظنون، إلا المعيشة بين الأهوال والبس حيث يطلق المرء على سجيته، وتبدر الغلطات على الرغم من طول الحذر والمراوعة ممن لهم باطن غير ظاهرهم في العقيدة الدينية، ولا يتصور أن رجلاً به باطن رظاهر في أمر العقيدة يستأمن بهته مؤمناً تقياً كخالد ومعاوية الناس حفيديهما، فإن إخفاء البواطن عشرات السنين حيث يعيش المرء على رسلته^(٢٥) أمر يفوق طاقة الإنسان.

قلنا في عقيدة صاحبه عمرو بن العاص إنه «مسلم لاشك في إسلامه، ولا شك في طبعه، ولا شك في اختلاف الطبائع بين المعتقدين جميعاً في كل دين من الأديان ورأى من الآراء، فلما فتحت له الحيلة باب التفكير في الإسلام أقبل عليه وود لو يخفمه بريئاً من عقابيين^(٢٦) الجاهلية؛ لأنه نعم يدعي منها وأيقن بضلالها».

• • •

قال وقد اعترف لقاء النبي - عليه السلام - ما فحوام. «قلعت خالداً فقلت ما رأيك؟ قد استقام المدمم والرجس نبي فقال خالد وأنت أريدك قلت وأنا معك» وكنت أسن منهما فقدمتهما لأستدبر أمرهما، فبايعا علي أن يغفر لهما ما تقدم من ذنوبهما، فأصممت أن أبايعه علي أن يغفر لي ما تقدم وما تأخر، فلما بسط يده قمصت يدي. فقال عليه السلام ما لك يا عمرو؟ قلت أبايعك يا رسول الله، علي أن يغفر لي ما تقدم من ذنوبي فإن إن لإسلام ولهجرة يجبر ما كان

(٢٥) علي رسلته يكرر الراء. علي مهله وهي رمي وأنه

(٢٦) عقابيين: مقبولة بالصم وأحد العقابيين لما يثر على الشفة من الحبوب البيضاء عب الحمير

قلوبهم فما بيعته، ووالله ما ملأت عسى منه ولا راحتته بما أريد حتى نحو ربه
حياء عسى».

وقلنا قبل ذلك، «ومن سيرة عمرو بعد إسلامه بعلم أنه كان يتعبد، ويقتصد
ويستعفر من ديوب وقع فيها، ويعيم الصلاة، ويسرد الصوم، ويعيش بين ديوه
مسلماء، وكلهم مسلمون».

ويقال في معاوية كل ما يقال في عمرو مع اختلاف الطبائع وبقاء لوازمه
أو ملارمائه في أعماق أعماق الطوية على غير وعى من صاحبها حيث يستوحى
مع العقيدة في أعماله الظاهرة وسرائره الخفية
ومن حيل الطبع في العلاقة بينه وبين ربه أنها لا تخرج عن وحى سليمة في
العلاقة بينه وبين الناس

كان حريصاً على أن يبرئ ذمته، ويبقى تبعته بما وسعه من حيلة وحول،
وهكذا كان احتشاده في نفى التبعة عنه بين يدي الله
انظر مثلاً إلى حيلة طبعه حين أراد أن يبرأ إلى الله من أخذ البيعة بعده لاسه
يريد قال في إحدى خطبه: «اللهم إن كنت إنما عهدت لي زيد لما رأيت من فضله
ببلعه ما ملئت وأعنه، وإن كنت إنما حملني حب الوالد لولده وإنه ليس إنما صنعت
به أهلاً، فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك»

وكأنه به بسائل نفسه بعد ذلك «مدا بقى من التبعة على في عقايل هذه
البيعة؟ عاية ما أرى به حق الله في أمر ولدي الذي أحبه أن أسأل له الموت إن
كان غير أهل لولاية العهد بعدى فإن كان الله قد أبقه ولم يقبضه فقد صنعت
ما استطيعه والد يطن بينه وبين نفسه أنه قدم حب ولده على رعاية حق الله»
ومن حيل الطبع في خطبته الأخيرة قوله «إن من أحب لقاء الله أحب الله
لقاءه، اللهم إني أحببت لقاءك فأحبب لقاءى»

حجة مقبولة عند الله، مخلوق يحب أن يلقي خالقه قاله يحب أن يلقاه
وختلاف طبائع الناس في الدين على غير وعى منهم لا معنى له إلا أنهم
يتدينون على حسب طبائعهم، وليس معناه أنهم يماقضون الدين ولا يطورون في
بواطنهم عليه.

ومن تحصيل الحاصل أن يقدّر إن معاوية يعلم من فقه دينه ما لا بد أن يعلمه
رجل كتب للنبي، وحضر محاسنه، وحضر عهده كله وعهد حليفه من بعده،

ومرت به الأقضية التي عصى فيها ولاية الأمر على مسمع منه، ورجع لفقهاء من الصحابة فيما أشكل عليه بعد ذلك من أشباه تلك الأقضية، فهو على نشأته الجاهلية والإسلامية لم يقصر في معارف دينه وبنياه عن الطليعة بين مظرانه من السادة الأمويين والقرشيين.

الأعمال

مدد الفتح الإسلامي لم يعزل وال واحد من ولاية الشام لشكاية الرعية منه، ولم يعزل العراق وال واحد لم يعزل للشكايات الكثيرة التي كانت تتعاطر على دار الخلافة من رعيته.

ويرول العجب بعض الشيء إذا نحن قسمنا القطرين قسمين آخرين، قسم هو حصة الدولة البيزنطية، وقسم هو حصة الدولة الفارسية

فالشام التي كانت حصة الدولة البيزنطية كانت صوبلة العهد بالنظم الإدارية والحكومية، وكانت فيها مدن من عواصم الدولة الكبرى، وعليها رؤساء من المعيرين في الدولة بمشارت السياسة والدين، وقد فتحها المسلمون على شروطهم المحددة للدميين المعاهدين، لأن أهلها كانوا جميعاً من أهل الكتاب، فلما استقر الأمر للدولة الإسلامية فيها بعد رواة الدولة البيزنطية، لم تكن من جانب الرعية مقاومة إجماعية، ولم يكن على شروط المعاهدة خلاف بين الحكام والمحكومين. وكانت الشام كذلك أقرب إلى الاستقرار لأن حدودها جميعاً كانت في بلاد الدولة الإسلامية، إلا الجانب الذي يلي تخوم الدولة البيزنطية، ولم يكن منه خطر كبير بعد صدعه الهرمسة الكبرى التي منى بها هرقل وودع بعدها تلك البلاد وراة الأبد، وكان كل خطر من هذا الجانب - عظم أو صغر - تتلقاه الدولة الإسلامية بحيوشها البرية وأساطيلها البحرية في جملتها، فلم تكن الشام منفردة بالدفاع إذا هم الروم براً أو بحراً، بل كانت الولايات من إفريقيه ومصر ومن الجزيرة في بعض الأحيان تتجمع لدفع الهجمات أو لانتقامها من وقوعها.

وكانت سياسة عمر في تمكين الفتوح وتحصينها أنفع السياسات للشام خاصة، إذ كانت خطته كما جاء في فتوح البلدان للبلادي أنهم «كلها فتحوا مدينة طاهرة أو عند ساحل ركبوا فيها قدر من يحتاج لها من المسلمين، فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الإمداد».

فانتظمت معاقرة الدفاع عن الشام على شوطنها وعند أطرافها، وأحييت من

(٩) سويرا سرب الماء أسلته وإلى بلاد الشام أرسلته.

كن جانب بالمدافعين عنها من حدد الدولة الإسلامية في الشرق والشمال والجنوب.

* * *

ولا نحذر شيئاً كما ينبغي أن نحذر الإشاعات التي سميها بالإشاعات الناريحية، ومن قبيلها إشاعة الصنف عن عثمان بن عفان - رضوان الله عليه - بعد حث هذه الإشاعة على النقد الناريحي، حتى خيل إلى الناس أنه لم يعمل عملاً قط انسم بالقوه أو خلا من الضغط، وهو إسراف في الرأي كإسراف جميع الإشاعات من قبيلها؛ لأن سياسة عثمان البحرية كانت أقوى السياسات، وكان فيها قسوة بمن بعده، ولم يكن مقتدياً بأحد قبله، وبمحبته عرف خطر الشواطن والمواشي من عمله في التجارة، فأصلح ميناء جدة في الحجاز، ولم يفعل لحظة من الشواطن المفتوحة في إفريقية ومصر والشام، ولا يقل عن حملة واحدة من حملات البحر أنه كان مسوقاً إليها برأى غيره، فإنه - على ما هو معلوم من سبق معاوية إلى الاستئذان في فتح قبرص أيام الفاروق - لم يأت العزم الأكبر في هذه الحملة إلا من جانب عثمان إذ كتب إلى معاوية يسترثق من حده في فتح هذه الجزيرة وتأمين الملاحة حولها، فأمره - كما جاء في البلاذري - بأن يركب البحر إليها ومعه امرأته «فإن ركبت البحر ومعك مرأتك فأركبه مأذوناً لك وإلا فلا». كانت هذه حال الشام يوم تولى معاوية إقليمها على عهد الفاروق، ثم تولاه جميعاً على عهد عثمان

وبخلاف ذلك، كانت حالة العراق من جميع الوجوه، فلم تكن فيها معاهدات ذممة تدين الرعية، ولم تكن حدودها الشرقية والسالبة أمنة كل الأمان في زمن الأرمانيين، فكانت - من البصرة، إلى أرمينية، إلى خراسان - عرضة للحملات والفتن في كل أوبة، وكانت الدولة الإسلامية لا تدفع بها كل قوتها كما أفرغتها للدفاع عن الشام أمام الدولة البيزنطية، لأن دولة فارس ذهبت بذهاب ملكها، فلم يحسب لها المسلمون حساب القوة المتجمعة، وسلخوا فيها مسلك التأهب للمفاجآت الطارئة من هنا وهناك، وليس فيها ما يشغل بال دولة في مواجعة دولة أخرى.

* * *

وعلى هذا، كان العراق - أو كانت الحرية كلها - أطرافاً مهمة في أيام الدولة الفارسية، فلم يكن لها نظام من نظم الإدارة الحساسة يسير عليه الحكم كما

سارب الحكومة الإدارية في الشام، ولم تنصح علاقات الحاكمين بالمحكومين في أبحاثها كما اتصحت مع المعاهدين الدمييين

وأعصل من ذلك كله بين مشكلاتها أو الفتح الإسلامي قد جاءها بمجتمع مختلف منقول إليها بحداويره من ساربه وفادته إلى سوقته وموليه

فقد انتقل إليها رهط من انقادة ودوى الرئاسة ليقيموا فيها، ويررعوا الأرض، ويُنَجِّروا بين أبحاثها، وعاش إلى جابيهم ألوف من الحدد المقيمين والحدد الداملين، وكلهم لهم أعطية من بيت المال، يعطاهما من عمل في الفتوح الأولى ومن يعمل في الغزوات التالية، وكان تقسيم الأعطية مشكلة من مشكلات هذا المجتمع المنقول فمن بقي عاملاً في الغزوات يحسب له حقد يستكثره على سابقيه من المجاهدين المقيمين، وأعطية بيت المال تأتي كلها من المدينة، أو تصرف كلها بتقديرها، ويلازم الولاية في نظر الجند لأنهم لا يعرفون في الإحصاء والتقدير بين الفريقين، ويلازمون لأنهم يعيشون بين أقربائهم وعشيرتهم ويتعرضون لمشبهات المحايبة بالحق أو بالباطل، ولا تنقطع الشكاية من الولاية، إلا ريثما يعمل واحد منهم ويتلوه خلف له أخذ في العمل، فبأخته القوم كربة أخرى بالنهم والشبهات.

وقد ثقلت أعباء هذه الشكايات على كاهل العاروق وهو في هيئته وعزمه واقتداره على فص المنازعات، فلم يكن يرى في جوانب المسجد مغموماً إلا علم أصحابه أنه مشغول بشكاية من شكايات الرعية أو للحدد في العراق

وبد معاوية أعماله العامة في الشام وهي بتلك الحالة من الاستقرار بالنقداس إلى جميع الولايات الإسلامية الأخرى، وجاء عمله فيها تدريجياً من معاونته لأخيه يزيد إلى قيامه على ناحية من الشام خلفاً له إلى قيامه على اشام كلها في أيام عثمان، فكان كل عمل من هذه الأعمال بمثابة «فترة تمرين» لعمل الذي يليه ويريد عليه هي السعة والتكليف، وكانت الأعمال «الحربية» أو أعمال التحصين يتولاها من حوله رجال من صناديد الحرب كعبدة بن الحراح وعبدالرحمن بن خالد، فلم يعم قط بقياده حربية مستقلة وصل بها إلى تبجحه حاسمة أو شاححة

ثم سببت العسة الويلة في خلاعه عثمان وهو بمعزل عنها، وقتل عثمان

فاتخذ من مقتله ذريعة للخروج على الإمام على وإنكار بيعته، وأسرف كل الإسراف في التذرع بهذه الذريعة قبل استقلاله بالخلافة، فما كان له من مسوغ يتعلل به غير مقتل عثمان يردده في كل حديث وفي كل خطاب وفي كل جواب، وينكر عليه بعض أصحابه أن يمنع علياً وأصحابه الماء في رقعة صدين، فيجيب المَعذرة له في صنيعة أنه يمنعهم الماء، لأنهم منعوا عثمان لماء وهو محصور واستند إلى آية من القرآن الكريم فسرّها برأيه، ليقتنع أنصاره بأنه على حق وأنه منصور، وهي قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ أَنْفِ اللَّهِ إِلَّا يَنْتَحِقَ وَمَنْ قُتِلَ مَعْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوِجَهُ سُلْطَانًا عَلَى شَرْفٍ فِي الْعَمَلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾

وعلى قدر اللهج بهذه الحاجة قبل استقلاله بالخلافة سكنت عنها وأغفلها بعد ذلك، فلم يعد إليها قط إلا ليحذر إلى قرابة الخليفة المقتول من سكوته وغفاله ويذمّ في هذا أن تذكر أن معاوية لم يكن بحاجة إلى قدرة خارقة، لإنارة الشام باسم الخليفة المقتول؛ فإن عثمان كانت به مصاهره في يسي كلب أكبر قبائل البادية في الشام، وكانت زوجته بائنة بنت الفرائصة تصف مصرعه في رسائلها، وتبعث بقميصه المخصب بالسلم وأصابعه المبتورة فترفع على المبر حيث يراها شهود المسجد في كل صلاة، وكان جسد الشام يعيدون عن معصية^(٢) الفتنة، لم يسمعوا صوتاً من أصوات الثورة على الخليفة المقتول، ولا حجة من حجج السطح على حكمه وكانوا بين معسكرين أقربهما إليهم وإلى عملهم معسكرهم في ولاية معاوية، ومنهم طائفة كان يسبقها لديه ولا يأذن لأحد منها أن يبتعد من جواره برهة إلى معصية الفتنة، مخافة عيبه من الاستماع لحجج المخالفين فيدخله الشك في دعوته ودعواه.

ولم ينته معاوية من مزاعه لعلّى إلى موقف فصل بالحرب أو بالسياسة، ففي ربيعة صيف حب الهزيمة بجيشه ليلة الهريز، وأيقن بسوء لعاقبة إذا استمرت مدة القتال، فأشار عليه عمرو بن العاص بحيلة امصاحف، فرفعوه في اليوم التالي وتداروا بالتحكيم إلى كتاب الله، فختلف عند الإمام واضطر في حربه المختلف إلى قبول التحكيم

(٢) معصية: صوت الإبطال في الحرب، وشدة القتال، والفتنة: الضيقة

ومن المؤرخين من يبالغ في خطر التحكيم ويجعل له شأماً في عواقب النزاع لم يكن له ولا كان من المعقول أن يكون به بحال هذا التحكيم لم يكن ليبدل تلك العواقب على أية نتيجة من النتائج انتهى إليها، سواء اتفق الحكمان على حلح على ومعاوية معاً، أو اتفقا على خلع أحدهما دون الآخر، أو لم يتفقا على شيء.

وفي كل حالة من هذه الحالات، كانت العواقب صائرة إلى ما صارت إليه بلا اختلاف، وكان المعسكران يعضيان في طريقهما الذي مضيا فيه، فلا يسلم أحدهما لصاحبه برأى يملبه عليه الحكمان متعقبن أو غير متعقبن.

إنما وقعت الواقعة الحاسمة بعقثل على . رضوان الله عليه . دون صاحبيه، ثم آلت خلافته إلى ابنه الحسن في معسكر مضطرب بين اخوارج واشيعة والموالي والاتباع الذين لا يعملون عمل الأنبياء طائعين، ولا يعملون عمل الرؤساء مهتدين مصطلعين. وورث الحسن معسكراً لم يطل عليه عهد الولاء لأحد قط، يناصر به معسكراً لم يقع فيه خلاف قط منذ الفتح الأول، إلا الخلاف الذي كان يريده مع وية ويعمل له، حذراً من معبة الاتفاق عليه.

ولم تمتنع طلب البيعة لغير معاوية ببيع معاوية وحده، أو بقي معارضوه متعربين لا يلود فريق منهم برئيس يرشح نفسه لخلافة أو يهض لها بحجة، مترك هؤلاء المتفرقين في العراق يصرب بعضهم بعضاً، أو في الحجاز لا يعملون شيئاً غير الترهيب والانتظار.

ولاشك أن معاوية قد استفاد في إمارته . منذ اللحظة الأولى . من كل نظام مفيد في حكومة الشام، فأبقى ما لا عى عنه من مطم الإدارة، وتوسع فيه وراة عليه، وأبطل ما لا بد أن يبطل مع الدولة المتعدية والدين الجديد.

وفد وكل الإدارة المالية إلى انقائمين بها في أيام الدولة البيرونية وعلى رأسهم سرجون بن منصور، ثم ابنه منصور بن سرجون ووكل الإدارة الكتابية إلى عبدالله بن أوس الغساني من وحوه العساسنة أصحاب الملك القديم في الشام، ونظم البريد وتوسع فيه للاطلاع على أخبار الأقاليم وإبلاغ الأخبار إليها على انتظام وقرتيب، ونشأ ديوان الخاتم بمراجعة الحساب بين العاصمة

(٢٧) موعها: موعه، ما أصاب جعله ميثاً له.

والولايات، وعزز بناء الأسطول بحديد مصانع السفن في عكا، واستجلب من فارس كل عامل بافع في مسائل الخراج والإحصاء، وعنى بتسجيل المواليد والوفيات لتقسيم الأعطيه والأرض، وجعل للجب عملاً يصرفهم عن البطالة والشقاق، فداوى بينهم وبين مواعيد الصوائف والشتواتى وهى مواعيد الحراسه والعرو في بلاد الروم من بحوم الشام إلى أرماس^(٣) القسطنطينية، وكان يحرك الأساطيل من حير إلى حير يخهدد القسطنطينية وسواحل الدولة البيزنطية ليستغلها بالدفاع عن التفكير في الهجوم.

وبررت حرامة معاوية في تدبير شئون ملكه مع ما اشتهر به ساسة العصر - في إقبال الدولة والدين - من الكلف بمناعم العيش والتهافت على المتع والملاذات، بل مع اشتهاه معاوية نفسه بمثل هذا الكلف في بيته وفيما يشهده الناس من أبته وزينته، فكان عظيم العدة بأطايب الخوان، كثير الزهو بالثياب الفاخرة، والحلية العالية، وكان يأكل ويشرب في أبهى الذهب والصحاف المرصعة بالجواهر، ويأسر للسمع واللهو ولا يكتم طوبه بين خاصة صحبه «لأن الكريم طروب»

إلا أنه كان على هذا كله لا يصيغ عملاً في سبيل لذة، ولا ينكص عن مشقة تواجهه من أجل معة تغريه، وربما أمر بإيفاضه ساعات من الليل لمراحه الرسائل والشكايات من أطراف الدولة القاصية، وربما جلس للمضالم بهاراً فاستمع إلى الحليل والدقيق منها، ونظر في بعضها، وأحال بعضها إلى من يناسب بها ويحاسبه على النظر فيها وكانت له قدرة على صبط هواه حين يريد، وقدرة على تصريف وقته كما يشاء.

ولم يزل منه هذه القدرة لشاهد والعائب أتاحت له حجة بطلب الخلافة أغتت عن الملحاجة بمظلمة عثمان، فكان يخطب فيقول «إني إن لم أكن خيركم فإني أضعكم لأنفسكم» وكان يقول للحس ولغيره «إني لو علم أن أحداً أصبغت لشئون الملك منه وأقدر على جمع الرعية حوله لما بارعه هذه الأمانة الثقيلة على عاتقه» وإنه كان الأمر أمر قدرة وعجز فلا جدل في وصف معاوية بالقدرة ونهى العجز عنه، لأنه من الصفات التي ترد على بال عارفيه أو خصومه

بيد أن القدرة - كما قب في الصفحات الأولى من هذه الرسالة - هي أحوج

(٣) أرباق جمع ريق يفتح الراء والياء ما حول المدينة من بيوت ومساكن

الصعدات إلى التقدير، لأنها لا تعرف إلا بمقدارها، ولا تدل على شيء إن لم تكن قدرة على هذا الشيء أو ذاك

وتقدير هذه قدره إلى اعتبار به رأس الدولة - أموية - فيما يرى - أنها كانت الحرم عاية الحرم في الشوط القصير، ولكنها محلو من الحرم أو منحرف إلى نقيضه في الشوط الطويل والأمد البعد

إن معاوية لم يضيع عملاً حاصراً في سبيل متعة حاضرة، ولكنه أوشك أن يضيع العد كله في سبيل اليوم الذي يشهده، أو في سبيل العمر الذي يحياه أنصاته الحاجة إلى إنفاق المال في أهبة الملك والإعفاق على الأموان والخدام إلى إرهاق الرعية بالضوابط ومخالفة العهود مع أصحاب الجزية، فكان من لولة من يطيعه، ومنهم من يحبه معترصاً كما فعل وردان في مصر حين أمره بذلك فأجابه سائلاً: «كيف أريد عليهم وفي عهدهم ألا يراد عليهم»

ومن الولاة الذين أنكروا أن تستقصى لأموال البيت مال الخليفة وإلى خراسان، الذي كتب إليه زياد يأمره ألا يقسم في الناس دهنًا ولا قصبة، فكتب الولاى إلى زياد: «بلغنى ما ذكرت من كتاب أمير المؤمنين، وإنى وجدت كتاب الله تعالى قبل كتاب أمير المؤمنين، وإنه والله لو أن السماء والأرض كانتا رتقاً^(٤) على عبد ثم أنقى الله خعل له مخرجاً والسلام».

إلا أن الولاة الذين أطاعوا ويطاعوا في الطاعة أكثر من الدين دكروا بالمخالفة، وكلف اشتد الحاجة إلى المال اشتد الطلب على الرعية، وعهد بيت المال إلى احتجاز حصة الزكاة من الأعطية لحسابها في الهبات والهدايا، وفتح هذا لباب على مصراعبه فتوسع فيه كل خليفة بعد معاوية، حتى جعلوا يحاسبون الناس «على التخمين»، ويحسون عليهم ثمراتهم قبل أن يسبها الأرض فيحسبونها عليهم ثمن دون ثمنها، ويأخذون منها ما يصل إلى أيديهم بالتخمين الذي يختاروه، وتمادى هذا العسف إلى عهد عمر بن عبدالعزير الذي استنكره، وكتب إلى بعض ولاته يقول: «إن عمالك يخرصون^(٥) الثمار عن أهلها، ثم يعومونها بسعر دون سعر الناس الذين يتبايعون به، فيأخذونها عرفاً^(٦) على قيمتهم انتهى

(٤) السوط الحرى مرة في العاية يقال: عدا شوطاً كما يقال عدا ملقاً

(٥) رتقاً: رتق الشيء سده صد مثقه

(٦) يخرصون: يخرص الكرم والدخل قدسوا بظن.

(٧) عرفاً: عرف على القوم: خلط وكتب.

قوموها».. ولم يمتد هذا العسف حتى كانت نهايته بداية للحراب وإفلاس الدولة في ختام عهدها، فكان إفلاسها هد - على حين حاجتها، إلى مضاعفة المورد - سبباً من أسباب التدهيل برؤالها.

وكنما كان غرام معاوية بأبهة انملك زهواً في قرارة النفس لا يبالي أن يباهي به من صادقه، ولو كان من لزهاد المبكرين للترف والسرف وخيلاء الثراء والفخر باتبعاء والكساء، فلم ينى قصر الخضراء بلع من عهده بالبناء أن سأل أبا درداً داعية الذهب والكعاف من الرزق. كيف ترى هذا؟

فسمع منه جواباً كان خليقاً أن يترقبه لو لم يكر لزهوه بما ابتناه لا يصدق أن أحداً يره بغير ما رآه قال أبو در إمام «الاشتراكيين» في ذلك الزمان «إن كنت بعدت من ما الله فأنت من الخائنين، وإن كنت بنيت من مالك فأنت من المسرهمين.»

وأشأم من هذه السياسة المالية سياسة الأمن أو سياسة ضبط الأمور كما كان يسميها

فلس أصل صلاحاً ولا أهل جهلاً من المؤرخين الذين سموا سنة «إحدى وأربعين هجرية» بعام الجماعة؛ لأنها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة فلم يشاركه أحد فيها، لأن صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت في تلك السنة، ووقع فيها الشقات بين كل منه من فئاتها كما وقع فيها إذ كانت خطة معاوية في الأمن والتأمين قائمة على فكرة واحدة هي التفرقة بين الجميع، وسيان بعد ذلك سكوا عن رضا منهم بالحال، أو سكوا عجزاً منهم عن السخمة والاعتراض، وكان سكوبهم سكون أبا م أو كان سكون الأعمار والأعوام

ولم يقصر هذه الخطة على ضرب خصومه بعضهم ببعض كما فعل في العراق حيث كان يضرب الشيعة بالحوارج، ويضرب الخوارج بالشيعة، ويعرق بين العشائر العربية بمداولة التقريب والإقصاء لعشيرة منهم بعد عشيرة، بل كان يفعل ذلك في صميم البيت الأموي من غير السهيانيين، فكان يأمر سعيد بن العاص بهدم بيت مروان كما تقدم، ثم يأمر مروان بهدم بيت سعيد، ويفرى أبناء عثمان بالمروانيين كما يعرى المروانيين بأبناء عثمان

وفرق بين اليمانية ونقيسية، أو بين جنوب الحريرة وشمالها، فأعطى حسان

ابن مالك سيد القحطانيين حكمه في صداره المحالس لليمانية، ومصاعفة الأجر لهم، أو للألعين الذين اصطفاهم من حزبه ورمطه، وجعل لكل هؤلاء الألعين حق التوريث من بعده لأقرب الناس إليه في رواتبه وأرزاقه ووجاهته وقيادته، واشترط رؤساء ايمانية عليه ألا يعدد في أمر أو يحل إلا بعد مشورة منهم يقدمهم فيها على ولاته ووزرائه

وهوق كذلك بين العرب والموالي، وأوشك أن بكل بالموالي ليقصيصهم عن مناصب الدولة وعن الإقامة في عواصمها لأنه كان يعلم أن العرب يلونون برؤسائهم، ولا رؤساء للموالي يلونون بهم في نقمة أو مظلمة

وانفتح للموالي بذلك باب اللياد بأصحاب المذاهب والسعوات، لأنهم رؤسهم دون الرؤوس، وقادتهم دون القادة، فلم يكدر عتبة من الدعاة يحضر بمذهب معقول أو غير معقول إلا ألقى إلى جانبه حموعاً من اموالي تصفى إليه، ووافق ذلك أن الخوارج من جميع العرب كانوا يدعون إلى مذهب في الخلافة يوافق الموالى في كل أمة، لأنه مذهب لا يحصر الخلافة في النسب ولا في قریش، ولا يرى لها شرطاً غير التقوى والصلاح، فتفرق اموالى بين الخوارج والشعة، وبصروا هؤلاء تارة وهؤلاء تارة أخرى، لأنهم جميعاً يحاربون بني أمية

واتبع هذه الخطة - خطة التفرقة - بين أهل الشام الذين تعهدت له ولايتهم من قبل الإسلام، فاستخلص لنفسه فرقة منهم لا تخرج من الشام ولا تلتقي بأحد من دعاة العراق أو الحجاز أو مصر أو إفريقية، ثم نقل إلى الشام طوائف شتى من غير أهلها، فنقل إليها طوائف الرط والسيابحة من البصرة، ونقل إلى الأردن وصور طوائف من الفرس والموالي، ونقل إلى أسطاكية أساورة^(٨) الموالي بالعراق، وخطط لعرب بالعجم، وهؤلاء بسلافة الشاميين في كل بقعة من يباع البلاد التي عرفت من قديم باسم بلاد السوربة.

ولم يستطع أن يستخلص قبيلة من كل كلها لأن منهم أصحاب عثمان وبنيت مروان، فاستخلص منهم أخوال يزيد، وأصبحوا يعدد ذلك فريقين فريق يدعو إلى خالد بن يزيد، وفريق يدعو إلى مروان.

(٨) أساورة جمع أسوار وهو فاند العرب

وراضح من هذه انفرقة أنه كان يكف يده عن البطش واليكية في معاملتهم جميعاً على اختلاف اسسب والعقام' لأنه كان يغري بعضهم ببعض فيستغنى بالوقية بينهم عن الإيقاع بهم، ولكنه على هذا كان يؤيد سياسة الإيقاع مهما يكن من قسوتها وغلظتها كما أيدها أقسى الولاة وأغلصهم في زمانه وبعد زمانه، وكان يحتار لها من يعصم أنه يعرط فيها ولا يفتصد في شرورها ومويقاتها، ولا يبالي أن يأخذ البريء بذنب الأثيم، ولا أن ينكل بالقرب قصاصاً من البعيد، وكذلك فعل واليه رياء في البصرة حيث أعلن «شريعة» حكمه فقال في خطبه التي افتتح بها حكمه: «إني لأقسم بالله لأحدث الولي بالمولى، والمقيم بالطمع، والمقبل بالمدير، والصحيح منكم بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: أيج سعيد فقد هلك سعد، إياي وبلج^(١١) الليل، فيأسي لا أوتى بمدلج إلا سفك دمه، وقد أحتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم، وإياي ودعوى الجاهلية: فيأسي لا أحد أحداً أعنى بها إلا قطعت لسانه، وقد أحدثتم أحدثاً لم تكن، وأحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن عرق قوماً غرقناه، ومن حرق عسى قوم حرقناه، ومن نكب بيتاً نكبت عن قلبه، ومن بهش قبراً دفنته فيه حياً، فكفوا أيديكم وأستنكم أكهف عنكم لسانى ويدي، وإياي لا يظهر لأحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا صرحت عنقه

وقد كانت بينى وبين أقوام إحد^(١٢) فجعلت ذلك دبر أسى^(١٣) وتحت قدمي، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً، ومن كان مسيئاً فليززع عن إساءته إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغصى^(١٤) لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له سترًا حتى يبدى لى صفحته. فإذا فعل لم أناضره».

إلى أن قال وعداً بعد هذا الوعد «واعلموا أسى مهما قصرت عنه فلمست بمقصر عن ثلاث است محتجباً عن طاب حاجة منكم ولو أتانى طارهاً يليل، ولا حابساً ررف ولا عطاء ولا محمراً^(١٥) لكم يعثا فدعوا الله بالصلاح لأنتمكم، فإبهم ساستكم العزديون، وكهفكم السى إليه بأور، ومنى تصلحوا يصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم، فيشدن لذلك عيظكم ويطول له حركم».

(٩) النج بعصم السور أول الليل

(١٠) إحد جمع إحقة وهي الحقد.

(١١) دبر أسى وراء أسى

(١٢) محمراً: جمر للجيش القوم، حبسهم في أرض العدو لا يقادرونها

ثم عاد إلى الندير والوعيد فاختم خطابه قائلاً : « إن لي فيكم لصراً كثيراً
فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي ».

• • •

وقد أمر صاحب شرطته أن يخرج بعد صلاة العشاء وبقيضاء مريع من الليل،
ثم لا يرى إنساناً إلا قتلته، وحيء إليه يوماً بأعرابي لم يقتله صاحب الشرطة
لاشتباه أمره عليه، فسأله ريكاد : أما سمعت النداء ؟ قال الأعرابي لا والله قدمت
بحلوبة لي وغشيتني الليل، وأنمت لأصبح، ولا علم لي بما كان من الأمير

قال : أظنك والله صادقاً، ولكن في قتلك صلاح الأمة، وأمر به فضربت عنقه
ومثل هذا الحكم لا يغتفر ولو كان من معاذيره «صبيح» الأمور وتأمين الناس،
لأنه يؤمنهم بخوف أشد عليهم من خوف العدوان، ولكنه على هذا لم يصلح
للمضبط والتأمين إلا فترة لم تطل . ولا يزال . سواء منها على الأمة أن تنقصى في
عدوان أهل البغي أو في نكال السلطان بمثل هذا النكال، ثم انقضت هذه الفترة،
فجمعت نوجم الشر ولم تذهب في تلك الأنحاء ماثبة من الفتنة إلا كال لها
حرثومة من تلك السياسة التي تفسد الأمور في رعاياها وفيما بعد رعاياها

وكان الناس من حين إلى حين يهربون من هذه الشدة وينحرمون بحوار
العاصعة فيحيرهم معاوية ولا يكف بد واليه عن غيرهم، وكتب إليه زياد مرة : إن
هذا فساد لعمري كلما طلبت رجلاً لجأ إليك وتحرم بك .

فكتب إليه معاوية «إنه لا ينبغي أن يسوس اناس بسياسة واحدة، فيكون
مقاصدا مقام رجل واحد، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة، وأكون أنا للرأفة
والرحمة فيستريح الناس بيننا».

عسى أن زياداً تخرج أشد الحرج في قضية ححر بن عدى، وأرسله إلى معاوية
فلم يتخرج معاوية من قنله، ولم يذكر الناس لزياد من جرائر قسوته في حكمه
ما ذكروه من جرائر هذه السقطة لمعاوية

وماءت العقى من سياسة التفرقة كما ساءت العقبي من سياسة القسوة، فلم
تنجم في الدولة باحمة فتنة إلا كانت حرثومتها في هذه السياسة، وكان حرم
معاوية وكانت قدرته في كل هذه العتق حراً لا بد به من تعفيه وكانت قدرته
في أعماله جميعاً قدرة لا بد لها من تقدير

وجماع الصدق في هذا التقدير أنها كانت قدرة على الشوط القصير والأمد

القريب، ولم تكن قط قدرة على الشوط الطويل والأمد البعيد، واستقر الملك لمعاوية على قلق دحيس إلى أن أدركته الوفاة سنة ستين للهجرة، وبطل نصفه قبل وفاته كأنه ضرب من السلى، وأصابته لوفه، وسقط أسنانه جميعاً، كأنها من أدواء التخمرة التي تحل إلى الكبد والأسنان، ويبدو أثرها في مرض الجلد والنثّة، وكان يحلظ في وفاته أحياناً، ولكنه كان يصحو ساعة بعد ساعة حاصر الدهن صحيح السنان، فدعا بصاحب شرطته الصحاك بن قيس الفهري، وبمسلم بن عقبة صاحب الأفاعيل المشهورة في حرب أهل المدينة، وقال لهما في أشهر الأسانيد «بغا يزيد وصيتي، نظر أهل الحجار فإنهم أهلك، فأكرم من قدم، عليك منهم وتعاهد من عاب عنك، وانصر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إلي من أن يشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فمكثوا لسانك وعيبك»، فإن ساءبك شيء من عدوك فانتصر بهم، فهذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم، وإن كنت أخاف من قريش إلا ثلاثة الحسين بن علي، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عمر»

ويقان إنه ألقى هذه الوصية إلى يزيد فقال: «يا بني، إنني قد كهنتك الرحلة والترحال، ووطأت لك الأشياء، وذلك لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب، وجمعت لك من جمع واحد، وإنني لا أتخوف أن يذاعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، وعبدالرحمن بن أبي بكر فأما عبدالله بن عمر فرحل قد قذفته العباد، فإذا لم يبق أحد غيره بايعك، وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه فإن خرج عليك فظفرت به، فاصفعه من له رجماً مائة وحقاً عظيماً، وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم، ليس همه إلا هي النساء والله، وأما الذي يحثم لك حثوم الأسد ويراعك مراوغة الثعلب فإذا أمكنه فرصة وثب، هذاك ابن الزبير»

وشبه أن تكون هذه الوصية في معناه آخر ما قاله وخلاصة ما خرج به من تجارب دنياه، فإنها سياسته التي كان يعيدها كما يداها برأيه عاد ليبتدئ بها من جديد هي أيام يزيد معرفة بالرحال وقدرة على التدبير هي الشوط القصير،

(١٣) عيبك، العيبة. وعاد من جلد يكون له العتج. ومن الرجل، يرمع موه.

وأحكام العقدة بآلتها في حينها، وبغير نظر إلى آلتها بعد ذلك الحين، ومن ذلك اختياره لإبلاغ الوصية أسوأ من يعين عليها مع الرمن مسلم بن عقيه والصحاك ابن قيس.. ومع ذلك مدافعه الفس بالعجازه والمداراه، فيوصي خليفته يعزل وال في كل يوم ولا يوصيه بالنظر فيما وراء ذلك من سطح عبي الحاكم وعجز عن إرضاء المحكوم. وصية رجن قدير، قدير عاية القدرة في الشوط القصير

في الميزان

حو الأمانة على لمؤرخ في هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي أن يراجع بينه وبين صغيره طائفة من الحقائق البديهيّة، قبل أن يستقيم به الميزان الصادق لتقدير الرجال بأقدارهم وتقويم الصاقي والمآثر بقيمتها.

ومن هذه الحقائق البديهيّة أن الأموال التي بدلها معاوية للمأجورين من حوله لم تذلل لتعريف الناس بحسناته وسيناته كما يعرفها من لم يأجر بعال ولم يتصل معه بسبب

ومن هذه الحقائق البديهيّة أن سلطان معاوية يدخل في الحساب حيث يؤوب الباحث إلى ذلك الرمن ليفرق بين ما يقال عن صاحب السلطان وما يقال عن رجل يحاربه السلطان في سمعته وذكره.

ومن الحقائق البديهيّة تواطؤ الرمن على إقرار ما قيل وتكرّر وطال وقوعه في الأسماح حتى لتكاد تنفر من تغييره لو عرص لها فيه شيء من التغيير، وحتى لتكاد تعجز عن البعد إلى الحقيقة لو رغبت في ذلك التغيير لسبب من الأسباب، وقلمّا تعرض هذه الأسباب لمن لا يعيهم تمحيص ما يقال في الساعة الراهنة، فصلاً عما يقال ويعاد منه مئات السنين

ومن الحقائق البديهيّة أن المحاباة تأتي بتوافق الطبائع، كما تأتي بالفرض والرشوة، فلا يسهل على الإنسان نقد صفه يعلم أنه منصف بعثها، واستنكار وسيلة يعلم أنه لا يستنكرها ولا يأبى النجاح إذا نوسل بها إليه

ومن الحقائق البديهيّة أن المحاباة بأسى من جهات لم تخطر للمستمع بمحباتها على بال فالدولة الأموية في الأندلس أنشأت للشرق الإسلامي تاريخاً لم يكتبه مؤرخه، ولا يكتبوه على هذا النحو لو أنهم كتبوه، وجاءت تلك الدولة الأندلسية مؤرخين من الأعلام ينصبون الميزان راحساً لكر سيرة أموية لا يقصدونها بالمحاباة ولكنهم لا يستطيعون أن يقصدوها بالنقد والعلامة لأنهم مصروفون بهوهم عن هذا الطريق

من هؤلاء أناس في طبقة ابن خلدون، بصع معارضة في ميزانه فيكاد يحسبه بغيّة الحلفاء الراشدين، ويتمحل المصداير به في إساد ولاية العهد إلى ابنه مع فسوقه وخلل سياسته، وكراهة الناس لحكمه حتى من أبناء قومه

ولا يهولن قارئ التاريخ اسم ابن خلدون عبقركه ويسمى الحقائق البسيطة
التي لا تكلفه أكثر من نظره مسقيمة إلى الواقع الميسر لكل باظر في تواريخ
الخلفاء الراشدين وتاريخ معاوية.

فما في وسع ابن خلدون أن يخرج من هذه التواريخ بمشاهدة بعيدة تجمع بين
معاوية والصديق والعاروق وعثمان وعلى في مسلك من مسائل الدين أو الدنيا،
وفي حالة من أحوال لحكم أو المعيشة، وإلهام في وسع كل قارئ أن يجد
المشابهات الكثيرة التي تجمع بين معاوية ومروار وعبد الملك وسليمان ومشام،
فلا يفترون فيها إلا بالدرجة والمقدار، أو بالتقديم والتأخير وإذا كان هذا شأن
ابن خلدون، فقل ما شئت في سائر المؤرخين وسائر المستمعين للتاريخ، من
مشاركة شهدا زمان الدولة ومشاركة بمشهدوه، ومن معاوية عاشوا في ظل تلك
الدولة، وتعلقت أقدارهم بأقدارها، وأيقنوا أنهم لا يحقصون منها شيئاً ثم
يسطيعون تعويضه من الأسس بما يفتنهم عنه، وما زال العهد بالمنيت عن
أرومته أن يلصق بها أشد من لصوق القاتمين عليها

إذا روجعت تلك الحقائق في ميزان التاريخ فقد ذهب من الكفة كل ما زيد
عليها في بيان الدولة، وكل ما علق بها من تراطو الزمن وتكرار العادة وكس
السامع من مشقة المراجعة وانتزاع الفكر مما ألفه ولم يألف سواء لقد تمهدت
لمعاوية أسباب لم تتمهد في عصره لأحد غيره من قبل الإسلام، وفي صدر
الإسلام، إلى أيام عثمان.

ولم يكن مفرداً أو عاجزاً فلم يضيع ما تمهد له بعجلة لا تؤمن عافيتها،
أو بتقصير عن الفرصة في أوبها، وكان له دهاء وحلم وكان فيه طموح واعتداد
بالنفس وسعة من سمات الرئاسة..

وكان له من كل أولئك مدره الذي أعاده على مقصده كما أعين بغيره، فكان في
يديه من المال والحند وسلطان الولاية ما لم يكن في يدي أحد من نظرائه
ومنازعيه، ولولا ذلك لما أعاده دهاؤه مع أعوانه من الدهاة، لأنه لم يعلبهم بعقل
عالم، ولم يصرمهم عن مقصدهم إلى معصده، بن خدمهم وخدمته، ولو لم يكن
عنده ما يطلبونه بخدموا غيره أو سارعوه على سواء، وربما سارعه بعضهم على
رححان.

وكان له حزم أو شئك أن يحرمه عرة الرئاسة ولكنه حزم من لا يغضب، وليس

بحلم من يغضب ويمك عذاب عضبه، فسيان أن يركب غضبه بعنان أو يعير عذاب، فإنه في غنى عن قوة الساعد مع مطية لا تنور ثورة الحجاج في كل حين وكان له طموح إلى السيادة، ولكنه طموح الألفة والعادة، ورثه مع جاء الأسرة ولم يخلق فيه بتلك الخليفة «الحيوية» التي يطبع عليها العصاميون، فكأنما في جزء من التركيب وليست وجاهة من وجاهات البيت العريق يطلبها كما يطلب الميراث. وإذا ورثت قدرة معاوية بميران الصباح حصل من مجاحه في كفة الميزان حاصل قليل يهوى شأنه مع أثقال الكفة الأخرى من الجهود والشواغل والهموم فقد أراد الملك له وبنيه، ولم يرد لهسى أمية أحصين، لأنه فرق بينهم ما اجتمع، وأعزى أناساً منهم بأساس، ولم يعص عمله إلا ليعتكره من بعده ليعشيره من بنى سفيان، فلم يخلفه من ذريته غير يزيد، وذهب يزيد في عتقوانه بداء الجنب فلم يخلفه أحد من ولديه

وتبعة معاوية في عاقبة ولي عهده الذي خرق الخوارق من أحبه أعظم جد من مسعته في توريثه الملك وتوريث أبنائه من بعده، فقد جنت عليه تلك الخليفة الأموية فلم يعرف من البر بالأبناء غير الإملاء لهم في النعمة والمتاع، وما كان يزيد ليقتصد في مطاعمه ومناعمه وهو ينظر إلى قدوة سيقته إلى تلك المطاعم والمناعم، وسبقته إلى تدبيرها له كلما استعصت عليه، ولو لم تكن من الشهوات التي يقضيها الأبناء للأبناء.

إن ذات الحب مرضى من أمراض الكبد، وأمراض الكبد قصاء حزم على اعمههم بطعامه وانعقرط في شهواته، وقد صنع معاوية ليزيد هذا وصنع له ذاك صنع له عدة للنعمة والمنة، ووضع له عدة الملك والسلطان، وما يحسب له من هذا دون ما يحسب من ذاك.

وخرج معاوية من الملك بالأيام التي قصها في نعمته وثرائه، ولا يقول في صولته وعزّه، فقد كان يدل لكل ذي بيعة منشودة دلائل يصير من بايعوه على مثله، ولو ورن ما احتمله في سبيل بيعتهم وما احتملوه في سبيل صاعه، لكان ما احتمله هو أثقل الكفتين، أما تدبسه العامة في أمر الملك فأمر جسيم لا تعدله حسامة عمل في عصره، لأنه يكسر بالملك خطابات، وكان في ميسوره أن يتقدم به خطوات يزيد عليها، مع ما بين الخطوة الماكسة والخطوة المصعدة من بون بعيد.

(١) تكمن: تكسر فلا في الأمر أراد له ولم يحجم عنه

لم يكن في ميسوره أن يديم على الدولة خلافة كخلافة الصديق أو الفاروق، ولكن كان في ميسوره أن يجنبها الكسورية والهرقلية، وأن يجعل الخلافة أثرًا باقياً في ولاية الأمر، إن لم يصمد على سنة الراشدين لم يصمد على سنة الملك العقيم. ولو أنه أنشأ هذا الملك في الدولة الإسلامية والناس لا يعرفون غيره لخف نصيبه من اللوم وهان حق التاريخ وحق العالم الإسلامي، والعالم الإنساني عليه.

غير أن الناس عرفوا في زمانه شارقاً شاسعاً بين ولي الأمر الذي يتخذ الحكم خدمة للرعية وأمانة للمخلق والخالق، وبشريعة لمرضاة الناس بالحق والإنصاف، وبين الحكم الذي يحاط بالأبهة ويجري على سنة المساواة ويعطى لصاحبه في البذخ والعتة، ويجعله قدوة لمن يقتدون به في السرف والمفالة بصفاة الحياة. كان الرجل من النصحاء يدخل عليه كأنما بيكته فيسلم عليه بالملك ولا يسلم عليه بالخلافة.

وتتابع عليه في أيامه الأولى من يقول له: السلام عليكم أيها الملك، فكان ينكر الاسم ولا ينكر السمة، إلى أن تنازعه الخيار بين ترك السمة أو التماهي فيها، فتماهى فيها وقال جهرة لمن حوله: نعم أنا أول الملوك!

وتبعته فيما شجر^(٢) بعده من خلاف توازن تبعته في هذا الخروج بولاية الأمر من روع الخلافة إلى أبهة الهرقلية والكسورية.

فما كان من المعقول، ولا من طبائع الأمور، أن تذر في الأرض كل تلك البذور من جرائم التفرقة ثم تسلم الدولة من عقابيلها أو تظل التفرقة سداً لصاحب الأمر مئات السنين كما كانت لمعاوية سنوات معدودات.

تبعات يحسب حسابها العسير إن كان للتاريخ جدوى يحرص عليها، وكان لشرف الذكر وزن يقام.

وليست جدوى التاريخ هنا كلمة مدح تنقص أو تزداد، وإنما جدواه أن يسان الذكر عن الايتذال وهو أشرف ما تملكه الإنسانية من تشريف أبنائها في الحياة وبعد الممات، فلا يباج عرض الإنسانية لكل من يملك طعاماً يملأ به البطون أو مالاً يملأ به الجيوب، ولا يختلط الحق بالباطل ثم تذهب الحيلة فيه وتكوب العقول والضمائر إلى التسليم، ويتساوى الجوهر والطلاء في ميزان الخلود والبقاء.

(٢) شجر: شجر بينهم الأمر تنازعوا فيه.

ومعاوية في هذا الميزان، لا يخرج منه مغبوناً ولا غائباً للحقيقة من بعده، وإنما تحسب له قدرته بتقدير، ويعطى من أثر قدرته، ومن أثر نيته، ما هو به حقيق. وقد عمل بتلك القدرة ما أفاده وأفاد قومه وأفاد الأمم التي تولاهما فيما تستقيده من قرار الدولة و«ضبط» الأمور، وذلك حق القدرة الذي لا حاجة معه إلى اللجاجة في أمر النية، فلو أن أحداً أراد أن يمحو من سجله كل ما عمله لنفسه وابنيه لما بقى في ذلك السجل عمل واحد تطول فيه اللجاجة حول النيات.. ونعود فنقول إنها قدرة لا ترسل على إطلاقها بغير تقدير، وإن تقديرها الحق أنها غاية القدرة إلى الشوط القصير.

لقد كان قويا لا مشاحة^(٣) في وصفه بالقوة على مثالها، ومثالها أنك تصرغها في خيالك على صورة من الصور، فتحضرك صورة الجمل الصبور ولا تحضرك صورة الأسد الهصور.

(٣) مشاحة: منازعة ومناقشة

الفهرس

٣	تقدير وتصدير
١٢	بين القدرة والعظمة
١٤	تمهيدات الحوادث
٢٣	الدهاء
٤٤	الحلم
٦٦	خليقة أموية
٧٨	موقف معاوية من قضية عثمان
٨٧	النشأة والتكوين
١٠١	الأعمال
١١٤	في العيزان

مؤلفات عملاق الأدب العربي

الكاتب الكبير

عباس محمود العقاد

٥٦ - مع ساحل جزيرة قمرية	٢٨ - الإسلام وموت مالمية	٩ - أديك
٥٧ - مؤلفات ولقاء في الأندلس والشهامة	٢٩ - الإسلام في القرن العشرين	١٠ - إبراهيم أبو الأنبياء
٥٨ - سرسنة في الأدب العربي	٣٠ - ما يقال عن الإسلام	١١ - حطيم كثر أو خواتم هيمنة المعمورة
٥٩ - الأجناسية	٣١ - خلائق الإسلام وتقبلهم	١٢ - عذرية سعد
٦٠ - قرأ في الأندلس والفتوح	٣٢ - التذكير فريضة إسلامية	١٣ - عذرية حبي
٦١ - معارف في اللغة والأدب	٣٣ - الفلسفة القرآنية	١٤ - عذرية الإمام
٦٢ - حياض في الفن والفن	٣٤ - الديمقراطية في الإسلام	١٥ - حيرة حقد
٦٣ - دين وقن وفلسفة	٣٥ - أثر العرب في الحضارة الأوروبية	١٦ - حياة الصبح
٦٤ - دين وشعر	٣٦ - الثقافة العربية	١٧ - ذو النورين مشايخ بن علي
٦٥ - قيم ومعايير	٣٧ - اللغة الثمانية	١٨ - عمرو بن العاصي
٦٦ - القديس في الأدب والفن	٣٨ - شعراء مصر ومجاهد	١٩ - معاصرة بن أبي سليمان
٦٧ - عبد القلم	٣٩ - أبحاث مجتمعات في اللغة والأدب	٢٠ - داعي النساء بلال بن رباح
٦٨ - ربه وعبد	٤٠ - حياة قلم	٢١ - أبو القوام الحبيب بن علي
٦٩ - ديوان ينفذ الصبح	٤١ - خلاصة اليومية وكثيرة	٢٢ - فاطمة الزهراء والفاطمون
٧٠ - ديوان جمع الطهيري	٤٢ - مناهج ديوان المصاحف	٢٣ - عبد البقرة
٧١ - ديوان أديب الأصول	٤٣ - لا شريعة ولا استعمار	٢٤ - إلهام
٧٢ - ديوان ربي الأديب	٤٤ - النيوحية والإنسانية	٢٥ - جحا الصالحين للصالح
٧٣ - ديوان حبيدة القوي	٤٥ - الصهيونية العالمية	٢٦ - أبو قوس
٧٤ - ديوان عابر سبيل	٤٦ - أسوان	٢٧ - الإنسان في القرآن
٧٥ - ديوان أعلام مصر	٤٧ - أديك	٢٨ - المرأة في القرآن
٧٦ - ديوان جود الأعاصير	٤٨ - عذرية الحديدي	٢٩ - مفرق الإصلاح والتعليم الإمام محمد
٧٧ - ديوان أديب	٤٩ - العذرية بنت الصديق	عبد
٧٨ - ديوان أديب	٥٠ - الإسلام والحضارة الإنسانية	٣٠ - سعد زغلول وعلم كثر
٧٩ - ديوان أديب	٥١ - معجم الأديب	٣١ - زوج عظيم الشهادة غاندي
٨٠ - ديوان أديب	٥٢ - الحكيم لستيق	٣٢ - عبد الرحمن كثر
٨١ - ديوان أديب	٥٣ - معجم الأديب (الجزء الأول)	٣٣ - ربيعة أبي الملاء
٨٢ - ديوان أديب	٥٤ - معجم الأديب (الجزء الثاني)	٣٤ - رجال عرفهم
٨٣ - ديوان أديب	٥٥ - عالم المسود والفتوح	٣٥ - بارك

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)

وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع، www.enahda.com

